

ابن سينا

واحد من عباقرة المسلمين الكبار،
عاش في القرن الميلادى الحادى عشر
وعرف المجد، وذاق ويلات السجن،
وودع الدنيا دون الستين . لقبه
معاصروه بالشيخ الرئيس، ومنحه الغرب
لقب: أبو الطب البشرى . أبدع معارف
جديدة فى كل العلوم . وظل كتاباه :
القانون والشفاء يضيئان الطريق
لل بشرية ثمانية قرون فى كل العلوم .
إنها قصة تثير الفخار ، يقرأها
الصغار والكبار .

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء
العرب



ابن سينا

أبو الطب البشري



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

علماء
العرب

(٧)

ابن سينا

أبو الطب البشري



سليمان فياض



قصر الداعية

في مدينة «بُخَارَى» على نهر زارفشان بجمهورية
أوزبكستان حاليا ، استقرَّ الدَّاعِيَةُ «عبدُ الله بنُ عليٍّ
ابنِ سينا» ، وصحبَ معه زوجته «سِتَارَةُ» ، وولديه :
«الحُسَيْن» ، و«الحَارِث» ، فقد عيَّنه الأميرُ «نوحُ

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م

جميع حقوق الطبع محفوظة
الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

ابن منصور « أمير الدولة السامانية ، والياً على « بخارى » .

كانت « بخارى » عاصمةً للسامانيين ، ولهم كان يدين بالطاعة الأمراء في أفغانستان في الجنوب ، وفي خوارزم في الشمال ، وفي جرجان جنوبى بحر قزوين .

وكانت « بخارى » مدينةً عامرة ، منذ خضعت للإسلام ، بالقصور ، والمساجد ، ومكتبات الوراقين ، وكانت تنتشر فيها ، وتحيط بها ، الحدائق والبساتين .

واستقر « عبد الله » بأسرته ، فى قصر من قصور الأمير « نوح » ، واعتاد أن يستقبل فى بيته ، كل ليلة ، صفوة من الدعاة ، ومن الفقهاء ، ومن علماء اللغة ، وعلماء علوم الدنيا ، فى الطبيعيات ، والرياضيات ، والفلك ، والمنطق والفلسفة . وفى كل ليلة ، إثر صلاة العشاء ، كان يدور بينهم حوار ونقاش ، لا يتوقف إلا عند منتصف الليل ، فى عديد من قضايا السياسة والدين واللغة وعلوم الدنيا .

واعتاد ولداه : « الحسين » و « الحارث » أن يجلسا فى أطراف المجلس ، يستمعان بشغف وفُضُول ، إلى

ما يتحدث فيه العلماء . وكان « الحسين » لا ينصر المجلس لينام ، إلا حين يذهب آخر ضيف ، وعندئذ يحاصر أباه بالأسئلة فيما سمعه ، وفيما لم يفهمه من مصطلحات العلوم . فكان أبوه يضحك ، ويضع يده على رأس « الحسين » قائلاً :

- لم تجاوز السابعة من عمرك بعد يا بنى . ولكل شىء مقدّماته . أمامك أن تحفظ كتاب الله ، وتحفظ قدراً وفيراً من شعر العرب ونثرهم ، وتدرس المنطق ، وعندئذ سوف تقدر على فهم ما لا تقدر على فهمه الآن .

بائع البصل

وأولى « عبد الله » اهتمامه لابنه الحسين ، فحفظ القرآن الكريم ، على يد معلم للقرآن ، والكثير من الشعر والنثر على يد معلم للأدب . وكان المعلمان يفدان إلى الحسين ، واحداً بعد آخر ، فى قصر أبيه ، ويقضى كل منهما معه بضع ساعات . وكان قد بلغ من العمر آنذاك عشر سنوات .

وقال الحسين يوماً لأبيه :

- أريدُ أن أتعلّم حسابَ الهند ، وقد سمعتُ أن العالمَ الرياضيَّ المسلمَ « أبا موسى الخوارزمي » ، قد وضع فيه كتاباً . وقد بحثتُ عنه عندَ الوراقين في بخارى ، فلم أعثرُ على نسخةٍ منه .

فقال له أبوه « عبدُ الله » :

- ستجدُ هذا الكتابَ يا ولدي عندَ صديقنا بائعِ البَصَلِ . وهو بعلمُ الحسابِ خير . فاذهبُ إليه في السوقِ .

وانطلقَ « الحُسَيْنُ » مسرعاً إلى بائعِ البَصَلِ في السوقِ ، ووجدَ لديه كتابَ « الحسابِ الهندي » . وفرحَ بائعُ البَصَلِ بالحُسَيْنِ ، وقالَ له :

- أنتَ عزيزٌ ، وابنُ عزيزٍ . وسأعلّمُك حسابَ الهندِ بنفسِي ، في بضعةٍ شهورٍ .

وأغلقَ بائعُ البَصَلِ متجرَه ، وتفرّغَ للحُسَيْنِ ، وعلمَه في قصرِ أبيه كتابَ « الحسابِ الهندي » ، وكتاباً آخرَ للخوارزمي عن « الجبرِ والمقابلة » . وأجزَلَ « عبدُ الله » العطاءَ لصديقهِ بائعِ البَصَلِ ، تعويضاً له عن إغلاقِهِ لمتجرِهِ بضعةً شهورٍ .

أخوان . . نقيضان

كان « الحُسَيْنُ » شديدَ الفضولِ للمعرفة ، كثيرَ السُّؤالِ عما لا يعرف ، قويّ الذاكرة ، فطنَ الفهم ، يُحسِنُ عقله جميعَ شتاتِ المعارفِ المتفرقة ، وينسجُ منها في ذهنه الصغير كُلاًّ واحداً . وكان عقله يُحسِنُ تمييزَ الأفكارِ الحسنةِ عن الأفكارِ الرديئةِ ، ويُحسِنُ اختيارَ ما هو حقيقيٌّ وواقعيٌّ من بينها ، نافراً من كلِّ خيالٍ أو خرافاتٍ أو أساطير ، ويُجهدُ عقله للوصولِ إلى هذه الغايات ، شأنه شأن كلِّ الموهوبين من العباقرة .

كان « الحارثُ » أخوه مُحبّاً للمرح وللهو ، مُغرماً بالتجوُّلِ في أنحاءِ بخارى ، وفيما حولها ، لكن « الحُسَيْنُ » كان لا يجدُ مسرةً ولا مُتعةً إلا في القراءة والحفظ . وتُشفقُ عليه أمّه « ستارة » ، فتقولُ له :

- ترفق بصحتك وعينيك يا بُنَيَّ ، اخرجْ وألعبْ ، مثلَ أخيك ، مع الأولاد .

ولا يزيدُ « الحُسَيْنُ » ، كلما سمِعَ نُصحَهَا ، عن

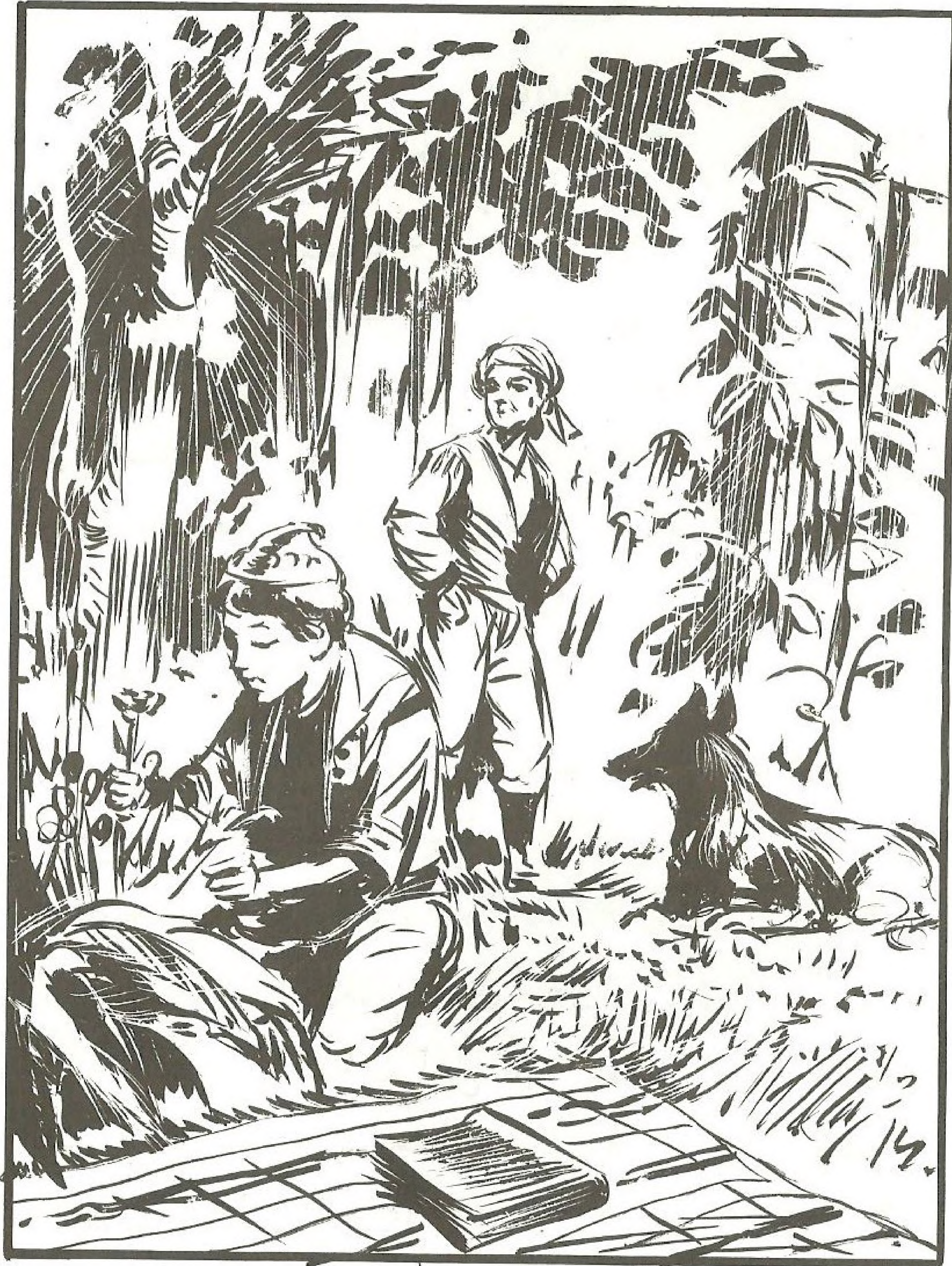
الابتسام ، ومُواصلَة ما كان فيه ، مع الكتب والأوراق .
وتدفع « ستارة » بولدها « الحارث » فيغري « الحسين »
بالخروج معه إلى الحدائق ، فيروح « الحسين » يتأمل
ويفحص النباتات ، والأوراق ، والزهور ، والحيوانات ،
في فُصول ، أو يغرق في القراءة في كتاب ، تحت شجرة
ظليلة من أشجار البساتين .

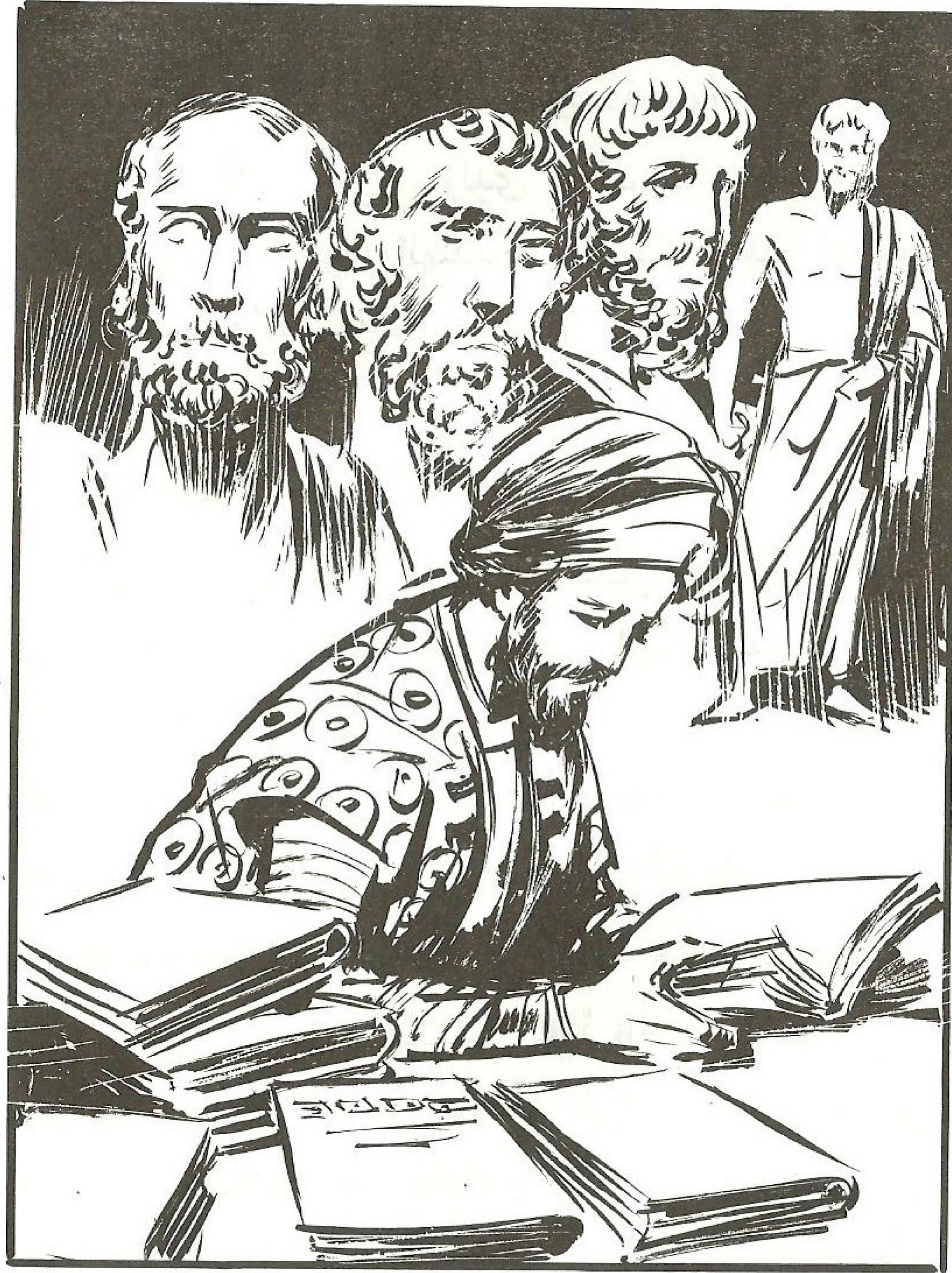
وتشكو « ستارة » لعبد الله قائلة :

- لا تدع ولدك هكذا . إنه ما يزال طفلاً ، ويجب أن
يعيش طفولته مثل أخيه « الحارث » .

ويهز « عبد الله » رأسه ، معبراً عن سروره بولده
« الحسين » ، ويقول له :

- ولدنا هذا سيكون عالماً يا ستارة ، فهو حاد الذكاء ،
ولا ينسى شيئاً . لا تخافى عليه ، فقد خلقه الله مُكتملاً
القوى البدنية والعقلية ، ويكفيه القليل من النوم . ليتك
ترينه يا أم الحسين ، وهو يناقش ضيوفى فى كل ليلة ،
سائلاً مرة ، ومُجيباً أخرى . ومذكراً لهم بما نسوه .





علمنى يا سيدى

قَدِمَ إِلَى «بُخَارَى» عَالِمٌ مُتَفَلِّسِفٌ هُوَ : «أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ النَّائِلِيُّ»، وَنَزَلَ ضَيْفًا مُقِيمًا فِي قَصْرِ صَدِيقِهِ «عَبْدِ اللَّهِ». وَكَانَ الْحُسَيْنُ آنَ ذَاكَ مَشْغُولًا بِدِرَاسَةِ الْفَقْهِ عَلَى أَسَاتِذِهِ «إِسْمَاعِيلَ الزَّاهِدِ»، وَكَانَ شَدِيدَ الرِّغْبَةِ فِي دِرَاسَةِ الْفَلَسَفَةِ وَالْمَنْطِقِ وَالرِّيَاضِيَّاتِ وَالطَّبِيعِيَّاتِ. وَكَانَ «أَبُو عُبَيْدِ اللَّهِ» لَهَا عَارِفًا، وَبِهَا خَبِيرًا فَقَالَ لَهُ «الْحُسَيْنُ» :

- عَلِّمْنِي كُلَّ مَا تَعْلَمُهُ . وَلَا تُشْفِقْ عَلَيَّ ، فَأَنَا قَادِرٌ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ دِرَاسَتِهَا جَمِيعًا .

فَضَحِكَ «النَّائِلِيُّ» ، وَقَالَ :

- رَاقِبْتُ أَحْوَالَكَ مَعَ الْعِلْمِ يَا بُنَى . وَلَسَوْفَ أَعْلَمُكَ كُلَّ مَا أَعْلَمُهُ ، فَذَكَؤُكَ أَهْلٌ لَهُ . وَسَنَبْدَأُ بِعِلْمِ الْمَنْطِقِ الَّذِي وَضَعَ أُسُسَهُ «أَرِسْطُو» فَيَلْسُوفُ الْيُونَانِ الْأَكْبَرِ .

وَقَسَمَ «الْحُسَيْنُ» كُلَّ وَقْتِهِ ، فِي نَهَارِهِ وَلَيْلِهِ ، بَيْنَ أُسْتَاذَيْهِ : «إِسْمَاعِيلِ الزَّاهِدِ» وَ«النَّائِلِيِّ» ، وَمَجَالِسِ

العلماء ، فأخذ يدرس مع الفقه ، منطق أرسطو :
 أشكّالهُ ، وأقيستهُ ، ومقدّماتِهِ ونتائجِهِ ، المُوجِبَ منها
 والسَّالِبَ ، حتى إذا أحاطَ بِهِ عِلْماً ، قال لَهُ « النَّائِلِيُّ » :
 - أنتَ الآنَ أَهْلٌ يا وَلَدِي ، لدراسةِ عِلْمِ الهَيْئَةِ
 (الفلك) ، والأُصولِ الهندسيّةِ ، ثم نرتقي منها لدراسةِ
 الطبيعياتِ ، والفلسفةِ ، في خاتمةِ المطافِ .

صبي ينظر للنجوم

مرّت ثلاثُ سَنَوات . وبلغَ « الحُسَيْنُ » من العُمُرِ أربعَ
 عشرةَ سَنَةً ، أتمَّ فيها تَعَلُّمَ عِلْمِ الهَيْئَةِ لبَطْلِيموس ،
 والأُصولِ الهندسيّةِ لإقليدس ، وكلاهُما من علماءِ اليونانِ
 العباقرةِ . وتعرّفَ على المقولاتِ الفلسفيّةِ لفلاسفةِ اليونانِ
 جميعاً ، الذين تُرجمَت آثارُهُم إلى العربيةِ .

وقالَ « النَّائِلِيُّ » لصديقه « عبدُ الله » :

- آنَ لي أن أرحلَ يا عبدَ الله . فقد طالَت ضيافتُك لي .
 ولم يُعَدِّ وَلَدُكَ الحُسَيْنُ بحاجةً إليّ ، فقد عَرَفَ كُلَّ
 ما أعرفُهُ ، ولَيْتَكَ رَأَيْتَ وَلَدَكَ يا صَدِيقِي ، وهو يفسّرُ لي
 أموراً في عِلْمِ المنطقِ والهندسةِ ، والفلكِ والفلسفةِ ، لم
 أَكُنْ أَجِدُ تفسيراً لها .

وإذْ خلا عبدُ الله بولده الحُسَيْنَ ، فَتَحَ قلبَهُ لَهُ ، وقالَ :
 - والآنَ . ماذا تُريدُ مِنِّي يا بُنَيَّ . إنْ أَرَدْتَ عملاً من
 أَعْمَالِ « بُخَارِي » لَدَي الأَمِيرِ نوح ، حَدِّثْهُ فيما تُريدُهُ .
 فقالَ لَهُ « الحُسَيْنُ » رَاجِياً :

- لا . لا أريدُ عملاً الآنَ . ولا أريدُ عملاً في الغدِ ،
 سِوَى عَمَلٍ يقدّمُهُ لي عِلْمِي . ولنْ أَرْضَى إلا بأنْ أَكُونَ ،
 بعِلْمِي ، واحداً من خَوَاصِّ رِجالاتِ الدُّولِ ، والأُمَرَاءِ .
 وابْتَسَمَ عبدُ الله لِطُمُوحِ وَلَدِهِ ، وبدَا لَهُ كأنَّهُ يُريدُ أنْ
 تَطُولَ يَدَاهُ النُّجُومَ . وأضافَ « الحُسَيْنُ » قائلاً لِأَبِيهِ :
 - ما يَزَالُ طريقُ العِلْمِ مفتوحاً أَمَامِي يا أَبِي . وَهُنَاكَ
 معارفٌ في الطَّبِيعِيَّاتِ والإِلَهِيَّاتِ لم أعْرِفْها بَعْدَ . وَهُنَاكَ
 عِلْمُ الطَّبِّ يدعُونِي لمعرفَتِهِ . وقد اخترتُ عالِمَيْنِ
 طَبِيبَيْنِ ، سَأَتَرَدَّدُ عَلَيَّهِمَا في مَسْجِدِ بُخَارِي الجامعِ ، وفي
 قَصْرِئِهِمَا ، وهُمَا طَبِيبَا الأَمِيرِ « نوح » : « الحُسَيْنُ بنُ نوحِ
 القُمَرِيِّ » ، و« أَبُو سَهْلٍ المُسَيَّبِ » .

فتنهَّدَ « عبدُ الله » ، وقالَ :

- صِرْتَ رَجُلًا قَبْلَ الأَوَانِ ، فَأَنْتَ تعرفُ ما تُريدُهُ ،
 وتحدّدُ الطريقَ إليه ، وتبذلُ الجَهْدَ في الوُصُولِ إلى
 غَايَتِكَ . لَكَ ما شِئْتَ يا أبا عَلِيٍّ .

وسعد « الحُسَيْن » لَأَنَّ أَبَاهُ لَقَّبَهُ بِلَقَبِ « أَبِي عَلِيٍّ » ،
اللقَّبُ الَّذِي كَانَ النَّاسُ يَخَاطِبُونَ بِهِ « الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ ابْنِ
أَبِي طَالِبٍ » ، فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ .

الطب أمره هين

انقضت ثلاث سنوات أخرى ، و « الحُسَيْن » قد أفرغ
نفسه لتعلم الطب ، على يدَي أستاذه : « القُمَرِي »
و « المُسَيَّب » . ووضَعَ « الحُسَيْن » معرفته بالطب في
مُعالجة المرضى الفقراء في « بُخَارَى » ، يزورهم حيث
هُم ، في بيوتهم ، وفي أعمالهم ، ولا يأخذ أجراً من
أحدهم . ويجري ، في بيته ، التجارب على ما عرفه من
الكيمياء في العقاقير النباتية والحيوانية والمعدنية .
فانفتحت له بعلاجاته ، وتجاربه الكيميائية آفاق جديدة في
الطب والكيمياء ، لا عهد لأحد بها من الأطباء والكيميائيين
في زمانه . وكان يقول لأستاذه :

- الطب ، مثل الكيمياء ، لا تكفي فيه الدراسة النظرية
وحدها . ويجب أن يقترن الطب بالدراسة العملية ، مثلما
يجب اقتران الكيمياء بالتجارب العملية . والطب أمره

هين لمن يعطيه حب القلب ، وذكاء العقل . فهو ليس من
العلوم الصعبة .

ونظر الأستاذان ، أحدهما إلى الآخر ، في دهشة .
وقال له « القُمَرِي » :

- لم يكذب أستاذك النائي يا أبا علي ، حين حذر أباك
من اشتغالك في حياتك ، بأي أمر آخر سوى العلم .

بداية المجد

في تلك الأيام انتشرت الأمراض بين الناس في
« بُخَارَى » حتى دخلت قصور الأغنياء والأمراء ، واشتد
فتكها بالفقراء . وكان الأطباء في « بُخَارَى » قليلي العدد ،
وكانوا يبالغون ، لشدة الحاجة إليهم ، في أجورهم .
وأخذ « أبو علي » يبذل جهده ، في علاج الفقراء ،
يزورهم في بيوتهم ، ويسعون إليه في قصر أبيه . فطارت
شهرته في « بُخَارَى » كطبيب مُعالج ، رحيم بالفقراء .
وبين المرضى في « بُخَارَى » ، كان الأمير « نوح ابن
منصور » . كان يشكو من قُرحة في المعدة ، ومن التهاب
القولنج (القولون) ، ويئس طبيباه ، من قدرتهما على
شفائه . ولم يجد مفرًا من نصيح الأمير باستشارة

الطبيب ، الصغير ، المراهق ، أبي علي ، فعلاجه
مُسْتَحْدَثُهُ لَا عَهْدَ لِأَحَدٍ بِهَا . فَأَرْسَلَ الْأَمِيرُ « نوح » فِي
طَلَبِ ابْنِ وَالِيهِ عَلِيٍّ « بُخَارَى » ، لِيُعَالِجَهُ .

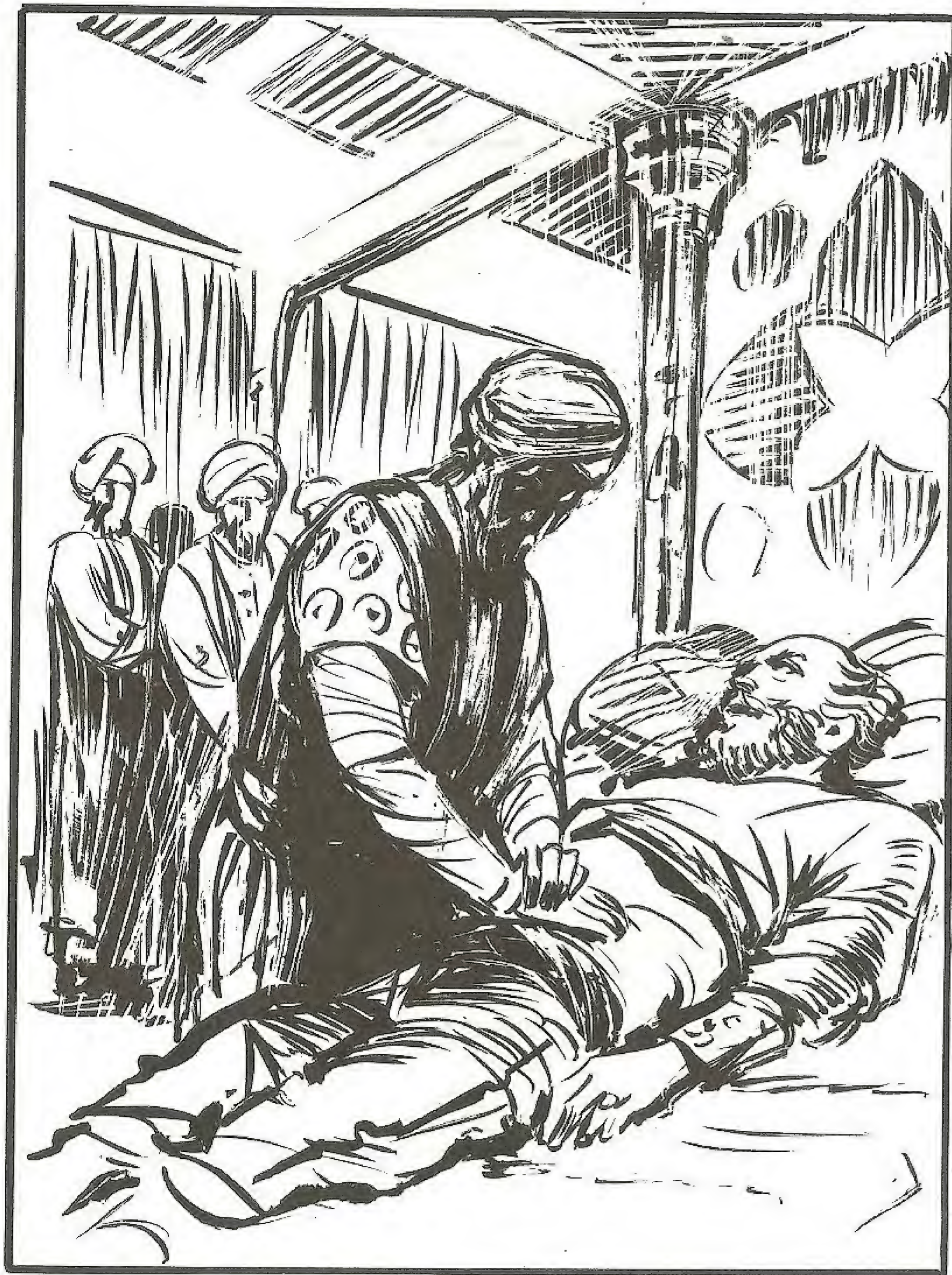
وَدَهَشَ « أَبُو عَلِيٍّ » ، وَقَالَ لِأُسْتَاذِيهِ :

- كَيْفَ أَعَالِجُ أَمِيرًا أَنْتُمَا طَبِيبَاهُ ، وَكِلَاكُمَا أُسْتَاذٌ لِي .
إِنْ أَذِنْتُمَا لِي أَشْرْتُ لَهُ بِعِلَاجٍ ، تُدَاوِيَانِي بِهِ . وَيَكُونُ شِفَاؤُهُ
بِفَضْلِكُمَا .

فَضَحَكَ « الْمُسَيَّبُ » وَقَالَ لِأَبِي عَلِيٍّ :

- يَا أَبَا عَلِيٍّ . صِرْتَ الْآنَ مِنَ الْعِلْمِ بِالطَّبِّ فِي مَكَانَةٍ
رَفِيعَةٍ . وَنَحْنُ نَعْرِفُ تَوَاضُعَكَ ، وَنَعْرِفُ أَنَّكَ تُنْكِرُ احْتِكَارَ
الْعُلَمَاءِ لِلْعِلْمِ . لَكِنِّي وَصَاحِبِي لَنْ نَحْرِمَكَ مِنَ الْفَضْلِ
فِي عِلَاجِ الْأَمِيرِ . وَقَدْ يَكُونُ تَشْخِصُكَ لِمَرْضِهِ غَيْرَ
تَشْخِصِنَا . فَهَيَّا لَتَرَى الْأَمِيرَ بِنَفْسِكَ ، وَيَرَاكَ .

وَعَادَرَ « أَبُو عَلِيٍّ » مَعَهُمَا قَصْرَ أَبِيهِ ، وَكَانَ أَبُوهُ مَا يَزَالُ
جَالِسًا ، يَتَّبِعُ بِنَظَرِيهِ ابْنَهُ ، وَهُوَ سِيرٌ بِجَلَالٍ وَاتِّزَانٍ بَيْنَ
أُسْتَاذِيهِ . كَانَ طَوِيلًا ، فَارِعَ الطُّولِ ، مَمْتَلِيًّا الْجَسَدِ ،
حَتَّى لَا تَرَى الْعَيْنُ فِيهِ نَقْصًا فِي شَيْءٍ .



- نَجَحَتْ فِي شِفَائِي ، فَتَمَنَّ عَلَيَّ ، وَاطْلُبْ مَا تَشَاءُ مِنْ
الْمَالِ .

فَقَالَ « أَبُو عَلِيٍّ » :

- يَا مَوْلَايَ ، أَنَا وَأَبِي نَعِيشُ فِي نِعْمَتِكَ . وَمُكَافَأَتِي هِيَ
أَنْ تَسْمَحَ لِي بِقِرَاءَةِ مَا فِي مَكْتَبَتِكَ مِنْ كُتُبٍ ، فَقَدْ سَمِعْتُ
بِضَخَامَتِهَا ، وَوَفَرَةٍ مَا فِيهَا مِنْ كُتُبٍ ، فِي كُلِّ فَنٍّ وَعِلْمٍ .
وَصَحِبَ الْأَمِيرُ « نُوحٌ » بِنَفْسِهِ طَبِيبَهُ « أَبَا عَلِيٍّ » لِيُرِيَهُ
مَكْتَبَةَ قَصْرِهِ .

أَحْلَامُ أَبِي عَلِيٍّ

كَانَتْ الْمَكْتَبَةُ تَشْغُلُ قَاعَاتٍ كَثِيرَةً ، بِهَا صِنَادِيقُ
لِلْكُتُبِ ، وَدَفَاتِيرُ مُسَجَّلٍ بِهَا أَسْمَاءُ هَذِهِ الْكُتُبِ ، وَفُرُوعُ
الْعِلْمِ الَّذِي دُونَتْ فِيهِ . كَانَ بِهَا ثَلَاثُونَ أَلْفَ كِتَابٍ ، لَيْسَ
بَيْنَهَا كِتَابٌ مَكَرَّرُ النُّسخَةِ ، وَلَيْسَ بَيْنَهَا كِتَابٌ إِلَّا وَهُوَ مُرْجِعٌ
وَحِيدٌ وَفَرِيدٌ .

وَوَضَعَ « أَبُو عَلِيٍّ » لِنَفْسِهِ نِظَامًا يُغَطِّي لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ ،
لِيَقْرَأَ مَا يَخْتَارُهُ مِنْ آلاَفِ الْكُتُبِ فِي مَكْتَبَةِ الْقَصْرِ . فِي

أُمْنِيَةُ الطَّبِيبِ الصَّغِيرِ

فَحَصَّ « أَبُو عَلِيٍّ » الْأَمِيرَ « نُوحٌ » . وَأَدْرَكَ عِلَّتَهُ ،
وَعَرَفَ دَوَاءَهُ . وَقَالَ لِلْأَمِيرِ :

- إِنَّ أَذْنَ لِي مَوْلَايَ أَلَزَمْتُهُ نِظَامًا فِي الْغِذَاءِ ، مَعَ
الدَّوَاءِ .

وَاسْتَسَلَّمَ الْأَمِيرُ لَطِيبِهِ الْفَتَى ، مَحْرُومًا مِنَ الْأَطْعِمَةِ
الَّتِي يُحِبُّهَا ، وَيُسْرِفُ فِي تَنَاوُلِهَا . وَأَخَذَتْ الْآلَامُ فِي
مِعْدَتِهِ وَأَمْعَائِهِ ، تَخَفٌ حَدَّثَهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، حَتَّى شَفِيَ
وَعُوفِيَ . عِنْدَئِذٍ قَالَ الْأَمِيرُ :

- مِنْ الْيَوْمِ ، أَنْتَ يَا أَبَا عَلِيٍّ بَيْنَ أَطِبَّائِي ، وَاحِدٌ
مِنْهُمْ .

فَقَالَ « أَبُو عَلِيٍّ » :

- أَيُّهَا الْأَمِيرُ . شَرَفٌ كَبِيرٌ لِي ، أَنْ تَضُمَّنِي إِلَى أَطِبَّاءِ
قَصْرِكَ ، مَعَ أَسَاتِذَتِي فِي الطَّبِّ .
وَقَالَ الْأَمِيرُ لِأَبِي عَلِيٍّ :

النهار كان أبو علي لا يفارق القراءة في المكتبة ، وفي الليل ، يسهر في قصر أبيه على أضواء القناديل والمشكاوات ، يقرأ ما استعاره من الكتب ، ويسجل معارف وملاحظات في دفاتره عما قرأه . وحين يعسر عليه فهم مسألة من مسائل العلم ، يخلو بنفسه للصلاة ، ويبتهل لمبدع الخلق ، حتى يسر له فهم ما تعذر عليه فهمه ، ويظل ساهراً يفكر حتى يغلبه النوم ، والسراج بجانبه مضاء .

ويحلم « أبو علي » في نومه ، مفكراً في حلِّه بالمسألة العسيرة ، فعقله الباطن يواصل التفكير فيما كان وعيه يفكر فيه في يقظته . ويضحو « أبو علي » من نومه فرحاً ، فقد وجد قبل لحظة الحل والجواب للمسألة العسيرة . ويعبر « أبو علي » عن شكره وحمده لمبدع الخلق ، فيتصدق بالمال ، على الفقراء الذين يلقاهم ، في طريقه إلى قصر الأمير ، ومكتبة قصر الأمير .

كتاب في يد دلال

كان « أبو علي » يقرأ ذات يوم في كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو . وعلى حدة ذكائه ، ودقة فهمه ، عجز عن أن يفهم ما فيه ، بل وعجز عن فهم غرض أرسطو منه . وأعاد « أبو علي » قراءة الكتاب مراراً ، بلغ عددها أربعين مرة ، حتى حفظه ، من كثرة قراءته له ، عن ظهر قلب . ويئس « أبو علي » من فهم هذا الكتاب ، بل ويئس من نفسه ، واهترت ثقته بذكائه وإرادته . وذات يوم ، في وقت العصر ، كان « أبو علي » بحى الوراقين في « بخارى » . ومر بدلال كتب ، ينادى على مجلِّد في يده ، يعرضه للبيع . واعترض الدلال طريق « أبي علي » قائلاً :

- هذا كتاب أيها الشاب في الفلسفة ، وثمنه رخيص .

فردَّ عليه « أبو علي » قائلاً بتبرم وضيق :

- لا فائدة في هذا العلم ، فابتعد عني بكتابك هذا .

فعاد الدلال يلح قائلاً :

- اشترى مني هذا المجلد ، ولن تندم . ثمنه ثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، ولولا ذلك ما عرضه للبيع .

وأشفق « أبو علي » على صاحب الكتاب ، ونقد الدلائل الدراهم الثلاثة ، وأخذ الكتاب منه ، ولم ينظر فيه ، وعاد إلى قصر أبيه ، وجلس في حديقة البيت ، تحت خميلة مزهرة في يوم صيف .

ونظر « أبو علي » في الكتاب ، وفتح فمه شاهقاً بدهشة وفرح . وهب واقفاً ثم جلس . فالكتاب لفيلسوف زمانه « أبي نصر الفارابي » ، والكتاب في أغراض كتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو .

ولم ينم « أبو علي » إلى الصباح . عكف ليلته على الكتاب يقرأه بشغف . ووجد « أبو علي » نفسه يفهم كتاب « أرسطو » الذي يحفظ نصه حرفاً بحرف . وكان سعيداً بشرح الفارابي له ، وحسن كشفه لأغراضه ومرامييه .

وإذ أشرقت الشمس ، غادر « أبو علي » صحن مسجد بخارى ، إثر صلاة الفجر ، وتصدق بمال كثير من ماله الخاص على فقراء بخارى ، شاكراً الله على نعمته عليه ،

إذ يسر له فهم ما لم يفهم . وهمس لنفسه : صدق الله العظيم ، ففوق كل ذي علم عليم .

وصية أب

كان « أبو علي » ما يزال طبيباً للأمير « نوح » ، وكان يواصل تثقيف نفسه بنفسه ، بهذه القراءات والدراسات الحرة ، والمنظمة . ومع ذلك كان يجد جانباً من نهاره يقضيه مع أبيه في مقر ولاية « بخارى » ، يشاركه في إدارة الحكم في المدينة ، ويتعلم على يد أبيه الحكمة والعدل في إدارة المدن ، والدول . وقال له أبوه يوماً :

- يا أبا علي . أنت الآن أهل لأن تكون والياً ، أو وزيراً ، أو حاجباً يخضع لسلطانه كل الوزراء . والدولة السامانية يا بني تدوي شمسها ، وأرى أن بقاءها بعد اليوم مرهون بحياة الأمير نوح ، وسوف تكون نهايتها بعده على أيدي هؤلاء الأمراء في غزنة (كابول الآن بأفغانستان) .

وقد كبرت في العمر يا ولدي ، وكبر الأمير « نوح » ، وكثرت أمراضه . والعلم يا أبا علي ، مع رجل مثلك لا يأخذ عنه أجراً ، لن يكفل لك الحياة الناعمة التي

عَشْتَهَا فِي قَصْرِ أَبِيكَ ، بَلْ لَعَلَّهُ يُثِيرُ ضِدَّكَ الْحُسَادَ
وَالْخُصُومَ . وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِ الْحِرَفِ يَا أَبَا عَلِيٍّ ،
وَلَا التَّجَارَةَ ، لِتَحْفَظَ عِلْمَكَ ، وَيَدَكَ ، وَحَيَاتَكَ . فَأَعِدْ
نَفْسَكَ لِلرَّحِيلِ عَنْ بُخَارَى ، لَوْ سَاءَتِ الْأُمُورُ ، بَعْدَ الْأَمِيرِ
« نُوح » ، إِذَا لَقِيتُ وَجْهَ رَبِّي .

المصائب لا تأتي فرادى

وَاشْتَدَّ الْمَرَضُ مَرَّةً أُخْرَى بِالْأَمِيرِ « نُوح » ، وَكَانَتْ
التَّوَثُّرَاتُ الْعَصَبِيَّةُ الَّتِي يُسَبِّبُهَا لَهُ أَمْرَاءُ الْأَقْطَارِ التَّابِعَةِ لَهُ ،
تَزِيدُ مِنْ مَرَضِهِ بِالْقَوْلَنِجِ وَقُرْحَةِ الْمِعْدَةِ . وَلَمْ تُفْلِحْ هَذِهِ
الْمَرَّةُ فِي عِلَاجِهِ وَشِفَائِهِ ، أَدْوِيَّةُ « أَبِي عَلِيٍّ » ، فَأُسْلِمَ
رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا .

وَحَدَّثَ أَنَّ مَكْتَبَةَ الْقَصْرِ السَّامَانِيِّ شَبَّتْ فِيهَا النَّارُ ،
وَاحْتَرَقَتْ عَنْ آخِرِهَا . وَمَعَ أَنَّ « أَبَا عَلِيٍّ » كَانَ لَيْلَةً
الْحَرِيقِ ، فِي بَيْتِهِ ، وَمَعَ أَصْدِقَائِهِ ، لَمْ يُغَادِرْهُ ، فَقَدْ
تَحَدَّثَ النَّاسُ ، وَتَحَدَّثَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الْحَاسِدِينَ
لِأَبِي عَلِيٍّ ، عَنْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَحْرَقَهَا ، حَتَّى لَا يَعْرِفَ أَحَدٌ
سِوَاهُ مَا كَانَ فِي كُتُبِهَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ . وَعَبَثًا رَاحَ



أَسَاتِذَةُ « أَبِي عَلِيٍّ » الْأَحْيَاءُ ، يُدَافِعُونَ عَنْهُ ، مُؤَكِّدِينَ أَنَّهُ
يُؤْمِنُ بِأَنَّ الْعِلْمَ لَيْسَ حِكْرًا لِأَحَدٍ ، وَيُؤْمِنُ بِضَرُورَةِ نَشْرِ
الْعِلْمِ بَيْنَ كَافَّةِ النَّاسِ .

وَلَزِمَ أَبُو عَلِيٍّ بَيْتَهُ حَزِينًا ، يَنْتَظِرُ خُمُودَ الشَّائِعَةِ ، وَخُمُودَ
الْفِتَنِ فِي أَرْجَاءِ دَوْلَةِ بَنِي سَامَانَ .

وَذَاتَ صَبَاحٍ ، وَكَانَ « أَبُو عَلِيٍّ » قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمَرِ
اِثْنَتَيْنِ وَعَشْرِينَ سَنَةً ، صَحَا مِنْ نَوْمِهِ ، عَلَى أَصْوَاتٍ فِي
قَصْرِ أَبِيهِ ، تُعْلِنُ وَفَاتَهُ ، بِالْبَكَاءِ . وَصَدَمَتِ اللَّحْظَةُ
« أَبَا عَلِيٍّ » ، وَبُهِتَ ، وَلَشِدَّةُ حُزْنِهِ عَلَى أَبِيهِ ، لَمْ تَقْدِرْ
عَيْنَاهُ عَلَى ذَرْفِ الدُّمُوعِ . خَنَقَهُ الْحُزْنُ ، وَاحْتَبَسَ فِي قَلْبِهِ
وَصَدْرِهِ وَمَشَاعِرِهِ .

وَحِينَ مَرَّتِ الْمِحْنَةُ عَلَى أَهْلِ الْقَصْرِ ، لَمْ يَجِدْ
« أَبُو عَلِيٍّ » بُدًّا مِنَ الرَّحِيلِ عَنْ « بُخَارَى » ، هَارِبًا مِنْ
مَدِينَةٍ فَقَدَ فِيهَا أَمِيرَهُ ، وَوَدَّعَ بِهَا أَبَاهُ ، وَاتُّهِمَ فِيهَا ظُلْمًا
بِحَرْقِ مَكْتَبَةِ نَادِرَةِ ، مَدِينَةِ تَغْرُبُ شَمْسُهَا ، وَيَذْوِي
مَجْدُهَا .

وَفَكَّرَ « أَبُو عَلِيٍّ » ، وَاسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى الذَّهَابِ بَعِيدًا عَنْ
بُخَارَى ، وَعَنِ الْأُمَرَاءِ الْغَزَنَوِيِّينَ الْمَتَمَرِّدِينَ ، الَّذِينَ
يُحَارِبُونَ الدَّوْلَةَ السَّامَانِيَّةَ ، وَأُمَرَاءَهَا الضُّعَافَ ، إِلَى مَدِينَةِ
« الْجُرْجَانِيَّةِ » ، عَاصِمَةِ الدَّوْلَةِ الْخَوَارَزْمِيَّةِ فِي الشَّمَالِ .
وَقَرَّرَ أَخُوهُ « الْحَارِثُ » الْبَقَاءَ فِي « بُخَارَى » إِلَى حِينٍ .
وَاخْتَارَتْ أُمُّهُ « سِتَارَةَ » ، الْعَوْدَةَ إِلَى أَهْلِهَا فِي قَرْيَةٍ
« أَفْشَنَةَ » . الَّتِي كَانَ زَوْجُهَا الرَّاحِلُ « عَبْدَ اللَّهِ » وَالْيَا
عَلَيْهَا ، فِيمَا مَضَى مِنَ السِّنِينَ .

لَا . . . لِلْسِّيَاسَةِ

لَمْ يَجِدْ « أَبُو عَلِيٍّ » مَشَقَّةً فِي الْوُصُولِ إِلَى الْأَمِيرِ « عَلِيٍّ
ابْنِ مَأْمُونٍ » ، أَمِيرِ خَوَارَزْمٍ ، فِي قَصْرِهِ بِالْجُرْجَانِيَّةِ .
وَرَحَّبَ الْأَمِيرُ بِأَبِي عَلِيٍّ ، وَأَحْسَنَ اسْتِقْبَالَهُ ، قَائِلًا لَهُ :
- شَهْرَتُكَ سَبَقَتْكَ إِلَيْنَا يَا أَبَا عَلِيٍّ . وَلَقَدْ كُنَّا نَفَكِّرُ فِي
دَعْوَتِكَ لِتُقِيمَ بَيْنَنَا ، فَمَا كَانَ لِمِثْلِكَ أَنْ يَبْقَى فِي
« بُخَارَى » ، بَعْدَ وَفَاةِ أَمِيرِهَا الْقَوِيِّ .

كَانَ الْأَمِيرُ « عَلِيٌّ » يُحِبُّ الْعِلْمَ وَالْعُلَمَاءَ ، وَكَانَ قَدْ
أَنْشَأَ مَجْمَعًا عِلْمِيًّا فِي الْجُرْجَانِيَّةِ ، يَضُمُّ صَفْوَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ
فِي زَمَانِهِ ، بَيْنَهُمْ : الْفِيلَسُوفُ « أَبُو سَهْلٍ الْمَسِيحِيُّ » ،
وَالطَّبِيبُ « أَبُو الْخَيْرِ الْحَسَنُ » ، وَالرِّيَاضِيَّانِ « أَبُو نَصْرِ
ابْنِ الْعِرَاقِ » ، وَ« عَبْدُ الصَّمَدِ الْحَكِيمُ » ، وَالْجُغْرَافِي
الْفَلَكَى « أَبُو الرِّيحَانِ الْبَيْرُونِيُّ » . وَقَرَّرَ الْأَمِيرُ « عَلِيٌّ »
رَاتِبًا شَهْرِيًّا لِأَبِي عَلِيٍّ ، وَضَمَّهُ إِلَى مَجْلِسِ الْعُلَمَاءِ فِي
مَجْمَعِهِ الْعِلْمِيِّ . وَبَدَأَ أَنَّ الْأَيَّامَ سَتَطِيبُ لِأَبِي عَلِيٍّ ، بَيْنَ
أَسَاتِذَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْعِظَامِ ، هُوَ بَيْنَهُمُ الْأَصْغَرُ عُمرًا ،
يَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ مَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْعِلْمِ ، وَيُعَلِّمُهُمْ مَا يَعْلَمُهُ مِنْهُ .

وَقَرَّرَ «أَبُو عَلِيٍّ» أَلَّا يَشْتَغَلَ بِالسِّيَاسَةِ ، مِثْلَمَا كَانَتْ
حَالُهُ مَعَ أَبِيهِ فِي بُخَارَى ، وَأَنْ يُوَاصِلَ فِي «الْجُرْجَانِيَّةِ»
أَبْحَاثَهُ وَقِرَاءَاتِهِ ، وَمُعَالَجَاتِهِ لِلْمَرْضَى بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ ،
وَأَنْ يَجِدَ جُسُورًا مِنَ الْمَقُولَاتِ الْفِكْرِيَّةِ ، يُوفِّقُ بِهَا بَيْنَ
الْفَلَسَفَةِ وَالدِّينِ ، وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، فَلَا يَنْبَغِي لَأَرَاءَ فِي
الْفَلَسَفَةِ وَالْعِلْمِ ، يَرَاهَا الْعَقْلُ حَقًّا ، أَنْ تَتَنَاقَضَ مَعَ دِينٍ
يَدْعُو لِطَلَبِ الْعِلْمِ أَيْنَمَا كَانَ ، وَفِي أَيِّ زَمَانٍ . وَكَانَ
«أَبُو عَلِيٍّ» قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمَرِ اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ سَنَةً .

بداية مؤلف

وَأَخَذَ «أَبُو عَلِيٍّ» ، يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْمَدُنِ فِي خُوارزم ،
بَاحِثًا عَنِ الْكُتُبِ ، سَاعِيًا إِلَى لِقَاءِ الْعُلَمَاءِ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى
الْجُرْجَانِيَّةِ ، آمِنًا إِلَى رِعَايَةِ الْأَمِيرِ «عَلِيٍّ» . وَأَخَذَ يُؤَلِّفُ
كُتُبًا عِلْمِيَّةً ، فِيمَا يَعْرِفُهُ مِنَ الْعُلُومِ .

كَانَتِ السَّنَوَاتُ تَمُرُّ تَبَاعًا عَلَى «أَبِي عَلِيٍّ» فِي
الْجُرْجَانِيَّةِ ، فِي هُدُوءٍ وَسُكُونٍ . كَانَ يَرْقُبُ مِنْ بَعِيدٍ
انْتِصَارَاتِ الْأَمَرَاءِ الْغَزْنَويِّينَ عَلَى الْأَمَرَاءِ السَّامَانِيِّينَ ،
وَيَتَابِعُ فَتُوحَاتِ الْأَمِيرِ «مُحَمَّدِ الْغَزْنَويِّ» بِجَيُوشِهِ فِي
شَمَالِي الْهِنْدِ ، وَإِعْلَانَهُ لِنَفْسِهِ سُلْطَانًا . وَكَانَ يَشْهَدُ اتِّقَاءَ

الْأَمِيرِ «عَلِيٍّ بْنِ مَأْمُونٍ» لِمَطَامِحِ السُّلْطَانِ الْجَدِيدِ
وَأَطْمَاعِهِ ، بِزَوَاجِهِ مِنْ أُخْتِ السُّلْطَانِ ، وَإِعْلَانِهِ التَّبَعِيَّةَ
لِسُلْطَتِهِ . وَكَانَ فِي نَفْسِ الْوَقْتِ ، يَضَعُ كُتُبًا يُفَرِّغُ فِيهَا
مَعَارِفَهُ ، وَأَرَاءَهُ .

أَلْفَ «أَبُو عَلِيٍّ» فِي الْجُرْجَانِيَّةِ كُتِبَ : «الْحِكْمَةُ
الْعُرُوضِيَّةُ» ، وَ«الْحَاصِلُ وَالْمَحْصُولُ» ، وَ«الْبِرُّ
وَالْإِثْمُ» ، وَ«الْمَخْتَصَرُ الْأَوْسَطُ» ، وَ«الْمَبْدَأُ
وَالْمِيعَادُ» ، وَكَانَتْ كُتُبًا فِي الْفِقْهِ ، وَفِي الْفَلَسَفَةِ . وَأَلْفَ
كِتَابًا عَنِ «الْأَرْصَادِ الْكُلِّيَّةِ» فِي الْفَلَكَ ، جَمَعَ فِيهِ مَعَارِفَهُ
الْفَلَكيَّةَ . كَانَ يَعْرِفُ الْكَثِيرَ ، وَكَانَتْ ذَاكِرَتُهُ تَخْتَرِنُ
الْكَثِيرَ ، وَلَا تَنْسَى . فَعَقْلُهُ بِالْغُ الصَّفَاءِ ، وَتَفَكُّيرُهُ شَدِيدُ
التَّنْظِيمِ .

لا أمان لرجل سيف

وَشَارَفَتْ سَنَوَاتُ «أَبِي عَلِيٍّ» فِي الْجُرْجَانِيَّةِ حُدُودَ
الْعَشْرِ ، وَبَدَأَ «أَبُو عَلِيٍّ» يُؤَلِّفُ كِتَابَهُ الشَّهِيرَ فِي الطَّبِّ
«الْقَانُونُ» . وَلَمْ يَكُنْ «أَبُو عَلِيٍّ» يَنْتَهِي مِنْ جُزْئِهِ الْأَوَّلِ ،
حَتَّى جَاءَتْ إِلَى الْأَمِيرِ «عَلِيٍّ» رِسَالَةٌ مِنَ السُّلْطَانِ

« محمودُ الغزنوي » يطلبُ منه فيه أن يبعث إليه بالعلماء الذين يضمهم مجمعُ الجرجانية العلمي ، فكلُّ منهم ، فيما سمع به ، نسيحُ فريدٌ في العلم .

وجمعَ الأميرُ المأمونيَّ علماءَ مجمعِ الجرجانية ، وصارَهم بأطماعِ السلطانِ محمودٍ في بلاده ، وعجزه عن مخالفةِ أمرِ السلطان . وقالَ لهمُ الأميرُ المأموني :

- القرارُ لكم في أنفسكم ، فمن شاء منكم ذهبَ إليه ، ومن شاء بقيَ معي ، وحميته ما استطعتُ ، ومن شاء الرجيلُ عن خوارزم ، فهو وما يشاء لنفسه .

وأدرك « أبو علي » أن السلطانَ الغزنويَّ لا يحبُّ حقيقةً العلماءَ ، ولكنه يخشى بأسهم عند غيره ، وأنه لن يكونَ رحيماً بالعلماء الذين يذهبون إليه ، إلا أن يكونوا من علماء الدين ، فهو رجلٌ لا يؤمنُ بغيرِ السيف ، والفتوحات ، ونشرِ الدعوة ، ولا مكانَ في قلبه لعلماء الدنيا ، وعلومِ الناس . ومثله لا حياة له عنده ، ولا حاضر ، ولا غد .

وكان « أبو علي » قد تعرّف إلى الأميرِ شمس الدين « قابوس بن وشكمير » أميرِ الدولةِ الزيارية ، جنوبيَّ بحر قزوين ، في إحدى زيارته للدولة الخوارزمية ، فقررَ

الرجيلُ عن الجرجانية ، بصُحبةِ صديقه العالمِ الفيلسوف : « أبي سهل المِسِيحِي » .

وفي ظلامِ الليل ، غادرَ الصديقان مدينةَ الجرجانية ، وكانا في ثيابِ الدراويش ، حتى لا يتعرّف عليهما أحدٌ من جواسيسِ السلطانِ محمودٍ وعيونه .

يكتب من الذاكرة

وتعرّض « أبو علي » وصاحبه لأخطارٍ كثيرةٍ في الطريق ، وهبت عاصفةٌ رمليةٌ شديدةٌ في الصحراء ، فهلكَ فيها « أبو سهل المِسِيحِي » ، ونجا « أبو علي » من العاصفة ، فبكى صاحبه ، وواصلَ هُروبه إلى « أبيورد » ، ثم « طوس » ، ثم « نيسابور » حتى وصلَ إلى « جرجان » عاصمةِ الدولةِ الزيارية .

كانت مدينةُ « جرجان » ، على ساحلِ بحرِ قزوين ، موفورةَ الثراء ، ترويهما نهيراتٌ عديدة . ونزل « أبو علي » ضيفاً على الفيلسوفِ « أبي حمَدِ الشيرازي » . وكانت لديه مكتبةٌ عامرة ، وقضى العالمان ليلتهما يتحدثان في أحوالِ زمانهما العاصفة .

وفي الصباح ، صحب « أبو حمَد » العالمَ الشابَّ

«أبا علي» ، وقدمه إلى الأمير «قابوس» ، فضمه إلى مجلس علمائه ، وأحسن استقباله ، وخصص له راتباً شهرياً ، أكثر مما كان له عند الأمير المأموني .

واشترى «أبو علي» لنفسه داراً واسعة ، مجاورة لدار صديقه «أبي حمد» . وجاء لزيارته عالم فقيه هو «أبو عبدة الجرجاني» ، واستراح كل منهما لصاحبه ، فصاراً صديقين حميمين . واعتاد «أبو علي» ، أن يملى على صديقه «أبي عبدة» ما يريد تدوينه من مؤلفات ، حتى يفرغ عقله للتفكير فيما يمليه ، ويحرر عقله من أعباء الكتابة . وكان «أبو عبدة» شديد العجب من أمر «أبي علي» ، فهو يملى ما يمليه مما يختزنه عقله من علم . ولا يكلف نفسه مشاق الرجوع إلى كتب . حسبه فقط ، قبل أن يملى ما يمليه ، أن يرجع إلى ملاحظاته في دفاتره ، وأن يحدد كتابة بيده ، نقاط موضوعه ، وينظمها ، في تسلسل متواصل ، تؤدي كل نقطة إلى ما بعدها .

وكان «أبو علي» يملى ما يمليه ، في كتابين ، أحدهما في كتاب : «القانون» الطبي الذي كان قد أنجز جزأه الأول في الجرجانية ، والآخر في كتاب «الشفاء» الذي

بدأ يمليه في «جرجان» ، في علوم الطبيعيات ، والرياضيات ، والإلهيات . وكان من عادة «أبي علي» ألا يتوقف عن إملائه ، إلا حين يقول له صاحبه «أبو عبدة» :

- بلغنا خمسين صفحة .

عندئذ يتسّم «أبو علي» راضياً ، فترفع الأقلام ، وتطوى الأوراق ، وتبدأ سهرة السمر مع الأصحاب من العلماء في «جرجان» ، بعد منتصف الليل .

الهرب الثاني

وصار «أبو علي» أقرب العلماء إلى نفس الأمير «قابوس» ، فأخذ يستشيرُه في شئون الحكم ، وأمور الدولة ، ويعمل الأمير بنصائح «أبي علي» ومشورته . وضاق قواد جيش الأمير بهذه الصلة بين الأمير والعالم ، ودبروا انقلاباً عسكرياً ضد الأمير قابوس ، وسجنوه في قلعة حصينة ، وسارعوا للقبض على «أبي علي» وأخذوا يبحثون عنه في «جرجان» ، لكن «أبا علي» كان قد فر منها ، وأخذ يتنقل بين المدائن : «نسا» ، و«أبيورد» ، و«طوس» ، حتى وصل إلى «دهستان» ، ولم يكذ

يَسْتَقِرُّ بِهَا حَتَّى مَرَضَ ، فَأَخَذَ يُعَالِجُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ، إِلَى أَنْ
كُتِبَ لَهُ الشِّفَاءُ .

وَجَاءَتْهُ رِسْلُ الْأَمِيرِ « قَابُوس » تَدْعُوهُ لِلْعُودَةِ إِلَى
« جُرْجَان » ، فَقَدْ نَجَحَ الْأَمِيرُ فِي الْقِيَامِ بِانْقِلَابٍ ضِدَّ
قُوَّادِهِ ، وَالْخُرُوجِ مِنْ سِجْنِهِ ، وَالْعُودَةِ إِلَى قَصْرِ الْإِمَارَةِ .
وَتَأَثَّرَ « أَبُو عَلِي » بِدَعْوَةِ صَدِيقِهِ الْأَمِيرِ لَهُ ، فَعَادَ مَعَ الرِّسْلِ
إِلَى « جُرْجَان » رَاجِعًا أَنْ يَسْتَقِرَّ بِهِ الْمَقَامُ هَذِهِ الْمَرَّةَ .

لَكِنْ إِقَامَةُ « أَبِي عَلِي » فِي « جُرْجَان » لَمْ تَطُلْ ، فَقَدْ
تَمَرَّدَ قُوَّادُ الْجَيْشِ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الْأَمِيرِ « قَابُوس » ، وَفِي
هَذِهِ الْمَرَّةِ ، قَتَلُوهُ ، وَسَارَعَ « أَبُو عَلِي » إِلَى الْهَرَبِ بِكُتُبِهِ
وَأَوْرَاقِهِ مِنْ « جُرْجَان » ، يَصْحَبُهُ تَلْمِيذُهُ « أَبُو عُبَيْدَةَ » ،
وَلَا يَعْرِفُ أَحَدُهُمَا أَيْنَ سَتَتَهِيَ بِهِ رِحْلَةُ الْفِرَارِ ، وَكَانَ
كِلَاهُمَا فِي ثِيَابِ الْمُتَصَوِّفَةِ .

الأمير العاشق

نَزَلَ الصَّدِيقَانِ ، فِي خَانٍ ، بِمَدِينَةِ « هَمْدَان » . وَسَمَرَا
فِي اللَّيْلِ مَعَ صَاحِبِ الْخَانِ ، فَحَدَّثَهُمَا عَنْ قَرِيبٍ لِلْأَمِيرِ
« شَمْسِ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيِّ » ، نَزَلَ بِهِ مَرَضٌ عَجِيبٌ ، لَمْ
يَعْرِفْ لَهُ عِلَاجًا جَمِيعُ أَطْبَاءِ « هَمْدَان » . فَهَذَا الْمَرِيضُ

مُلَازِمٌ لِلصَّمْتِ ، عَازِفٌ عَنِ الطَّعَامِ وَالْكَلَامِ ، حَتَّى عَنِ
الشُّكْوَى مِمَّا يُؤْلِمُهُ .

وَنَظَرَ « أَبُو عُبَيْدَةَ » إِلَى « أَبِي عَلِي » ، ثُمَّ قَالَ لِصَاحِبِ
الْخَانِ :

- بِوَسْعِ صَاحِبِي هَذَا عِلَاجٌ قَرِيبٌ لِلْأَمِيرِ
« شَمْسِ الدَّوْلَةِ » ، لَوْ دَبَّرْتَ لَنَا سَبِيلَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ .

وَفِي الصَّبَاحِ ، يَسَّرَ صَاحِبُ الْخَانِ لِلْغَرِيبَيْنِ سَبِيلَ
الْوُصُولِ إِلَى مَرِيضِ قَصْرِ الْأَمِيرِ . وَجَدَهُ « أَبُو عَلِي »
جَالِسًا عَلَى سَرِيرِهِ . وَرَأَاهُ شَابًّا وَسِيمًا ، سَاهِمًا ، شَارِدَ
النَّظَرَاتِ . لَا يَلْتَفِتُ إِلَى أَحَدٍ ، وَلَا يُرَكِّزُ عَيْنَيْهِ عَلَى
شَيْءٍ ، شَاحِبَ الْوَجْهِ ، غَائِرَ الْخَدَّيْنِ مِنَ الْجُوعِ .

وَجَلَسَ « أَبُو عَلِي » ، وَأَخَذَ يَفْحَصُ مَرِيضَهُ ، يَفْتَحُ فَمَهُ
تَارَةً ، وَعَيْنَيْهِ تَارَةً ، وَيُنْصِتُ إِلَى نَبْضَاتِ قَلْبِهِ الْخَافِتَةِ ،
وَيَتَحَسَّسُ مَوَاضِعَ فِي جَسَدِهِ ، قَدْ يُحَسُّ فِيهَا الْمَرِيضُ
بِأَلَمٍ . وَرَفَعَ « أَبُو عَلِي » رَأْسَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ :

- لَيْسَ بِمَرِيضِنَا أَلَمُ يُعَانِيهِ الْجَسَدُ ، وَأَحْسَبُهُ مَرِيضًا
بِنَفْسِهِ .

وَطَلَبَ « أَبُو عَلِي » أَنْ يُؤْتَى لَهُ بِرَجُلٍ ، يَعْرِفُ كُلَّ بِلَادِ
الْإِمَارَةِ الْبُوَيْهِيَّةِ ، مُدْنَهَا وَقُرَاهَا ، فَجِئَ لَهُ بِرَجُلٍ تَاجِرٍ ،



دَائِمِ الْأَسْفَارِ ، فَأَجْلَسَهُ «أَبُو عَلِيٍّ» بِجَانِبِهِ ، وَأَمْسَكَ
هُوَ ، بِأَصَابِعِ يُسْرَاهُ ، الْمِعْصَمِ الْيُسْرَى لِلْمَرِيضِ ، وَاضْبَعًا
إِبْهَامَهُ عَلَى عِرْقِ النَّبْضِ . وَأَخَذَ التَّاجِرُ يَذْكُرُ أَسْمَاءَ
الْبِلَادِ ، حَتَّى إِذَا ذَكَرَ اسْمَ بَلَدَةٍ بَعَيْنِهَا ، أَحَسَّ «أَبُو عَلِيٍّ»
بِنَبْضِ مَرِيضِهِ الشَّابَّ يَشْتَدُّ خَفْقُهُ .

عِنْدئِذٍ صَرَفَ «أَبُو عَلِيٍّ» التَّاجِرَ ، وَطَلَبَ رَجُلًا آخَرَ ،
يَكُونُ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي خَفَقَ لَذِكْرِهَا قَلْبُ
الْمَرِيضِ . فَجِئَ لَأَبِي عَلِيٍّ بِرَجُلٍ دَلَّالٍ ، أَخَذَ يَذْكُرُ
أَسْمَاءَ الْأَحْيَاءِ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ ، وَأَسْمَاءَ الشَّوَارِعِ بِهَا ،

وَعِنْدَمَا نَطَقَ الدَّلَّالُ بِاسْمِ شَارِعٍ بَعَيْنِهِ ، خَفَقَ قَلْبُ الشَّابِّ
خَفَقًا عَنِيفًا . فَطَلَبَ أَبُو عَلِيٍّ مِنَ الدَّلَّالِ أَنْ يَذْكُرَ أَسْمَاءَ
الْعَائِلَاتِ الَّتِي تَقْطُنُ فِي هَذَا الشَّارِعِ ، وَأَسْمَاءَ بَنَاتِهَا ،
وَحِينَ ذَكَرَ الدَّلَّالُ اسْمَ أُسْرَةٍ بَعَيْنِهَا ، تَسَارَعَتْ ضَرْبَاتُ
قَلْبِ الشَّابِّ ، وَحِينَ نَطَقَ بِاسْمِ فَتَاةٍ بَعَيْنِهَا اضْطَرَبَتْ
نَبْضَاتُ قَلْبِ الشَّابِّ ، وَارْتَجَفَتْ جُفُونُهُ ، وَدَفَعَ الشَّابُّ
بَأَبِي عَلِيٍّ ، وَقَدْ انْفَجَرَ فِي بُكَاءٍ مَرِيرٍ ، وَهُوَ يُخْفِي وَجْهَهُ
بِكَفِّهِ .

وَابْتَسَمَ «أَبُو عَلِيٍّ» ، وَقَالَ بِصَوْتٍ مَرْتَفِعٍ :

- مَرِيضُنَا يُحِبُّ هَذِهِ الْفَتَاةَ الَّتِي سَمِعْتُمْ اسْمَهَا ، وَفِي
رُؤْيَيْهِ لَوَجْهَ هَذِهِ الْفَتَاةِ رَاحَتُهُ ، وَفِي زَوَاجِهِ مِنْهَا شِفَاؤُهُ مِنْ
مَرَضِهِ .

ليلة فرح

وَقَدِمَ الْأَمِيرُ «شَمْسُ الدَّوْلَةِ» فَرِحًا بِمَعْرِفَةِ مَرَضِ قَرِيبِهِ
الْأَمِيرِ الصَّغِيرِ ، وَقُرْبِ شِفَائِهِ ، وَقَدَّمَ «أَبُو عَلِيٍّ» نَفْسَهُ
لِلْأَمِيرِ ، فَصَاحَ بِهِ :

- أَهْوَأَ أَنْتَ . طَالَمَا سَمِعْتُ بِكَ . لِمَ أَخْفَيْتَ نَفْسَكَ

عَنِّي يَا أَبَا عَلِيٍّ . لَوْ سَمِعْتُ بِقُدُومِكَ ، لَأَسْتَقْبَلْتُكَ بِنَفْسِي
عَلَى أَبْوَابِ « هَمْدَانَ » .

وَأَبْدَى الْأَمِيرُ دَهْشَتَهُ لِأَبِي عَلِيٍّ ، مِنْ حُبِّ يَوْعُ ضَاحِبِهِ
فِي الْحُمَى ، وَالْهَزَالِ ، وَالْعُزُوفِ عَنِ الدُّنْيَا . فَقَالَ لَهُ
« أَبُو عَلِيٍّ » ، وَهُمَا جَالِسَانِ فِي إِيْوَانِ الْإِمَارَةِ :

- أَيُّهَا الْأَمِيرُ . النَّفْسُ لَهَا تَأْثِيرٌ عَلَى الْجَسَدِ ، مِثْلَمَا
لِلْجَسَدِ تَأْثِيرٌ عَلَى النَّفْسِ . كِلَاهُمَا إِنْ مَرَضَ ، يُورِثُ
الْآخَرَ الْمَرَضَ ، وَإِنْ صَحَّ يُوْرِثُ الْآخَرَ الصِّحَّةَ . وَلَا أَرَى
سَبِيلًا لِشِفَاءِ هَذَا الشَّابِّ ، سِوَى أَنْ تَجْمَعَهُ بِحَبِيبَتِهِ ، فِي
رَبَاطٍ يُقَرُّهُ الدِّينُ .

وَشَهِدَ « أَبُو عَلِيٍّ » وَ « أَبُو عُبَيْدَةَ » لَيْلَةَ فَرَحٍ ، زُفَّتْ فِيهَا
الْفَتَاةُ إِلَى الشَّابِّ . قَرِيبَ الْأَمِيرِ . وَكَانَ « أَبُو عَلِيٍّ » قَدْ
بَلَغَ مِنَ الْعُمَرِ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً .

يَوْمَ رَئِيسِ الْوُزَرَاءِ

أَفْرَدَ الْأَمِيرُ شَمْسَ الدَّوْلَةِ قَصْرًا لِأَبِي عَلِيٍّ ، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ
لِيَكُونَ رَئِيسًا لَوُزَرَائِهِ وَمُسْتَشَارًا لَهُ فِي شُؤْنِ الْحُكْمِ ، فَقَالَ
لَهُ « أَبُو عَلِيٍّ » :

- لَا سَبِيلَ لِقَبُولِي هَذَا الشَّرَفَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِلَّا إِنْ أَذِنْتَ
لِي فِي إِدَارَةِ أُمُورِ الدَّوْلَةِ بِالْعَدْلِ وَالنَّزَاهَةِ .

فَضَحِكَ « شَمْسُ الدَّوْلَةِ » وَقَالَ :

- وَمَنْ أَجَلِ الْعَدْلِ وَالنَّزَاهَةِ أَرِيدُكَ يَا أَبَا عَلِيٍّ .

وَنَظَّمَ « أَبُو عَلِيٍّ » سَاعَاتِ يَوْمِهِ كُلِّهَا . فِي النَّهَارِ يُدِيرُ
أُمُورَ الْحُكْمِ ، وَفِي اللَّيْلِ يُمَلِّي عَلَى « أَبِي عُبَيْدَةَ » ،
بِحَضُورِ أَصْدِقَاءِ مِنَ الْعُلَمَاءِ خَمْسِينَ صَفْحَةً ، مِنْ كِتَابِهِ
« الْقَانُونِ » ، أَوْ مِنْ كِتَابِهِ « الشِّفَاءِ » ، قَائِلًا لِلْعُلَمَاءِ مِنْ
حَوْلِهِ :

- لَا يَنْبَغِي لِعَالِمٍ أَنْ يُبْقِيَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ ،
وَلَا يُدَوِّنَهُ فِي كِتَابٍ ، قَبْلَ أَنْ يَلْقَى وَجْهَ رَبِّهِ .

وَحِينَ يَنْتَصِفُ اللَّيْلُ ، يَدْعُو إِلَيْهِ بِالْمَغْنَيْنِ وَالْمَغْنِيَّاتِ ،
وَيَقْضِي مَعَ صَاحِبِهِ سَاعَتَيْنِ مِنَ السَّمْرِ وَالطَّرَبِ وَالضَّحِكِ ،
وَبَيْنَ أَيْدِيهِمُ الْأَطْعِمَةُ وَالْفَوَاكِهِ ، يُسْرِفُونَ فِي أَكْلِهَا ، إِلَى
أَنْ يَغْلِبَهُمُ النَّوْمُ ، فَيَنْصَرِفُونَ ، وَيَذْهَبُ « أَبُو عَلِيٍّ » لِيَنَامَ
ثَلَاثَ سَاعَاتٍ لَا تَزِيدُ .

وَكَانَ « أَبُو عُبَيْدَةَ » يَشْفِقُ عَلَى أَسَاتِذِهِ ، مِنْ إِسْرَافِهِ فِي
الطَّعَامِ ، وَإِغْرَاقِهِ فِي اللَّهْوِ وَالطَّرَبِ ، وَإِفْرَاطِهِ فِي بَذْلِ
الْجَهْدِ ، فِي إِدَارَةِ الْوِزَارَةِ ، وَفِي التَّأْلِيفِ ، فَيَقُولُ لَهُ

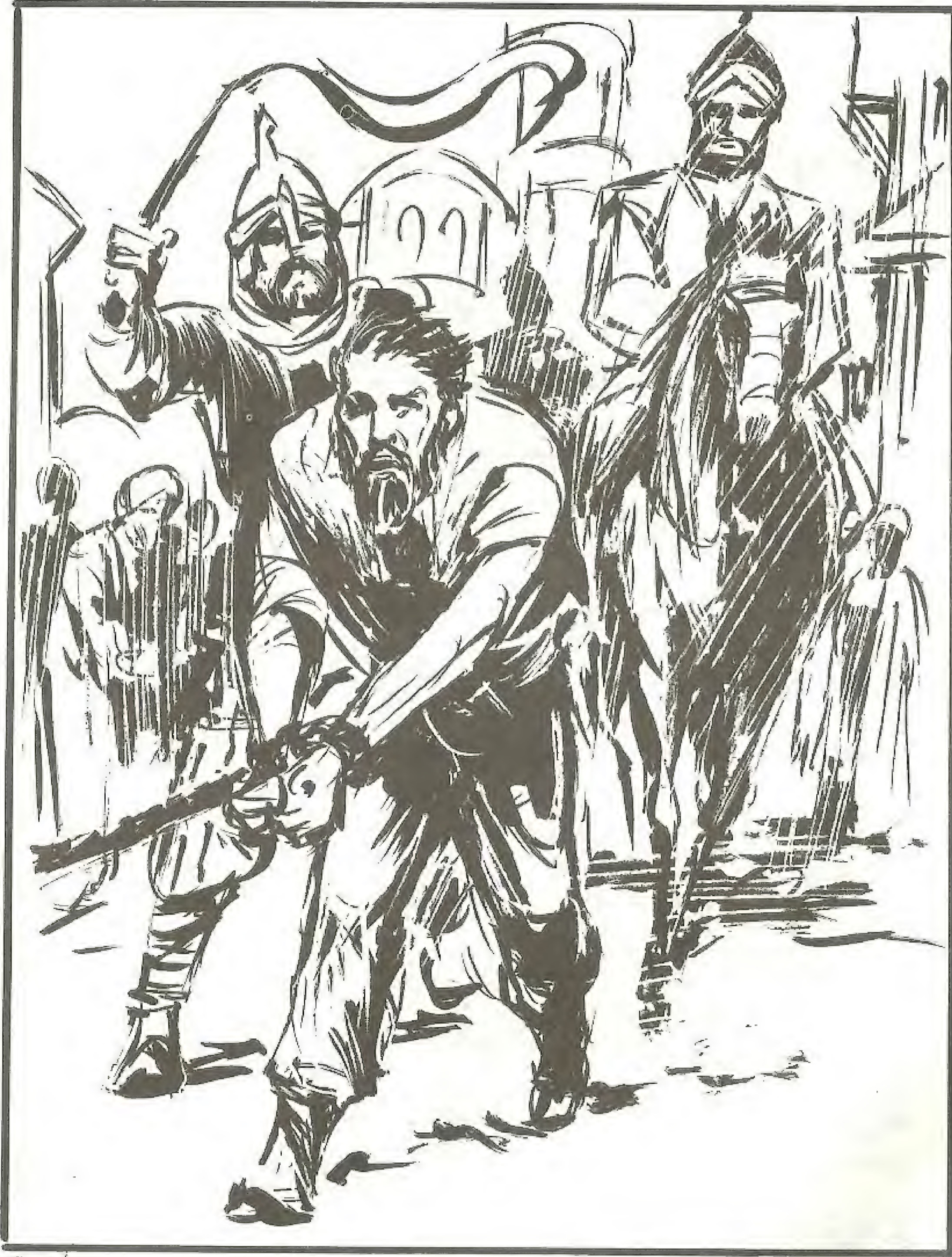
« أَبُو عَلِيٍّ » ضَاحِكًا :

- يَا أَبَا عُبَيْدَةَ . حَيَاةٌ قَصِيرَةٌ غَنِيَّةٌ بِالْعِلْمِ ، وَالْمَسَرَّةِ ،
وَالْعَمَلِ ، خَيْرٌ عِنْدِي مِنْ حَيَاةٍ طَوِيلَةٍ خَاوِيَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمُتَعِ
الثَّلَاثِ ، يَنْحَنِي فِي خَاتِمَتِهَا الظَّهْرُ ، وَيَسِيرُ صَاحِبُهَا عَلَى
ثَلَاثٍ : قَدَمَيْهِ ، وَالْعَصَا .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَاجَأَ « أَبُو عَلِيٍّ » ، صَحْبَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ .
قَدِمَ لَهُمْ عُودًا ، لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ ، بِهِ مِفَاتِيحُ عِنْدَ
الْعُنُقِ ، تَرْفَعُ الْأَوْتَارَ قَلِيلًا عَنْهُ ، وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ :
- هَذِهِ مِفَاتِيحُ تُتِيحُ لِلْعَازِفِينَ التَّحَكُّمَ فِي دَرَجَةِ شَدِّ
الْأَوْتَارِ ، فَالْوَتَرُ الرَّخْوُ أَضْعَفُ نَغْمًا ، وَالْوَتَرُ الْمَشْدُودُ أَحْلَى
فِي الْأَنْغَامِ ، وَتَرْدِيدِ الْأَصْدَاءِ .

عَالَمٌ فِي السَّجْنِ

وَأُصْدِرَ « أَبُو عَلِيٍّ » قَرَارًا ، وَقَعَهُ الْأَمِيرُ
« شَمْسُ الدَّوْلَةِ » فِي تَرَدُّدٍ وَإِشْفَاقٍ . وَأُوقِفَ هَذَا الْقَرَارُ قُوَادَ
الْجَيْشِ عَنْ تَوَلَّى أُمُورِ الْخَرَاجِ ، وَجَبَايَةِ أَمْوَالِ الْفُقَرَاءِ ،
بِأَكْثَرِ مَا يَطِيقُونَ . فَلَا يَنْبَغِي لِقَائِدٍ فِي الْجَيْشِ أَنْ يَكُونَ
وَالِيًا ، وَلَا جَابِيَ خَرَاجٍ ، حَتَّى لَا يَغْتَنِي بِالْمَالِ ، وَلَا يَفْقُدَ
رُوحَ الْقِتَالِ ، وَلَا يَتَمَرَّدَ يَوْمًا عَلَى الْأَمْرَاءِ ، وَتَفْقُدَ الدَّوْلُ



حَيَاةَ الْأَمْنِ وَالِاسْتِقْرَارِ ، بِالْمَطَامِحِ وَالْأَطْمَاعِ ، بِالْأَمْوَالِ
وَبِالسَّلَاحِ .

وعندئذٍ ثَارَ قُودُ الْجَيْشِ عَلَى هَذَا الْقَرَارِ . وَهَاجَمُوا
بِفَصِيلَةٍ مِنَ الْجُنْدِ ، قَصَرَ « أَبِي عَلِيٍّ » وَقَبَضُوا عَلَيْهِ ،
وَضَرَبُوهُ ضَرْبًا مُبَرِّحًا ، وَسَاقُوهُ مُكَبَّلًا بِالْأَغْلَالِ ، وَسَجَنُوهُ
فِي إِحْدَى الْقِلَاعِ . ثُمَّ تَوَجَّهُوا إِلَى قَصْرِ الْأَمِيرِ « شَمْسِ
الدَّوْلَةِ » ، وَطَالَبُوهُ بِأَنْ يُصْدِرَ حُكْمًا بِإِعْدَامِ « أَبِي عَلِيٍّ » .
لَكِنْ شَمْسُ الدَّوْلَةِ ، كَانَ فَائِقَ الشَّجَاعَةِ ، فَرَفَضَ أَنْ
يُصْدِرَ هَذَا الْحُكْمَ ، فَهُوَ شَرِيكُهُ فِي الْقَرَارِ ، وَأَبُو عَلِيٍّ
عَالِمٌ لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَلَنْ يَقُولَ التَّارِيخُ عَنْهُ إِنَّهُ قَتَلَ عَالِمًا
مِثْلَهُ . لَكِنَّ الْأَمِيرَ قَبْلَ أَنْ يُلْغَى هَذَا الْقَرَارِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْزَلَ
« أَبَا عَلِيٍّ » مِنْ رِئَاسَةِ الْوُزَرَاءِ ، وَقَبْلَ أَنْ يَظْلَ « أَبَا عَلِيٍّ »
حَاسِبَ الْقَلْعَةِ ، لَا يُغَادِرُهَا . وَقَبْلَ قُودِ الْجَيْشِ أَنْ يُحْسِنُوا
مُعَامَلَةَ « أَبِي عَلِيٍّ » فِي مَحْبِسِهِ ، وَأَنْ يَسْمَحُوا لَهُ
بِالْكُتُبِ ، وَبِالْأَوْرَاقِ ، وَبِالْأَقْلَامِ ، وَأَنْ يَزُورَهُ صَدِيقَهُ
« أَبُو عُبَيْدَةَ » فِي كُلِّ نَهَارٍ ، لِيُمْلِيَ عَلَيْهِ « أَبُو عَلِيٍّ » مَا يُرِيدُ
أَنْ يُمْلِيَهُ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ .

وَفِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ ، الَّذِي زَارَهُ فِيهِ « أَبُو عُبَيْدَةَ » أَمْلَاهُ
« أَبُو عَلِيٍّ » قَصِيدَةً طَوِيلَةً مِنَ الشَّعْرِ ، قَالَ فِيهَا :

عَجَبًا لِقَوْمٍ يَحْسُدُونَ فَضَائِلِي
مَا بَيْنَ غِيَابِي إِلَى عُذَائِي
عَتَبُوا عَلَى فَضْلِي وَذَمُّوا حِكْمَتِي
وَاسْتَوْحَشُوا مِنْ نَقْصِهِمْ بِكَمَالِي
إِنِّي وَكَيْدُهُمْ وَمَاعَتَبُوا بِهِ
كَالطُّودِ يَحْقُرُ نَطْحَةُ الْأَوْعَالِ
وَإِذَا الْفَتَى عَرَفَ الرَّشَادَ لِنَفْسِهِ
هَانَتْ عَلَيْهِ مَلَامَةُ الْجُهَّالِ

العودة لرئاسة الوزراء

وَمَرِضَ « شَمْسُ الدَّوْلَةِ » بِقَرْحَةِ الْمَعِدَةِ ، وَالتَّيْهَابِ
الْقَوْلُنجِ ، وَحَارَ الْأَطْبَاءُ فِي عِلَاجِهِ ، وَقَبْلَ قُودِهِ خُرُوجِ
« أَبِي عَلِيٍّ » مِنْ سِجْنِهِ ، لِعِلَاجِ أَمِيرِهِمْ . وَنَسِيَ
« أَبُو عَلِيٍّ » كُلَّ مَا حَدَّثَ مِنَ الْقُودِ وَالْجُنْدِ . وَآخَذَ يَمْرُضُ
الْأَمِيرُ بِنَفْسِهِ فِي حُجْرَتِهِ ، وَيُدَاوِيهِ . يُسَكِّنُ لَهُ آلَامَهُ ،
وَيُحَدِّدُ لَهُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ ، وَيُبْعِدُهُ عَنِ التَّفَكِيرِ فِي مَشَاكِلِ
الإِمَارَةِ ، عِنْدَمَا تَكُونُ مَعِدَتُهُ مُتَمَلِّئَةً بِالطَّعَامِ ، حَتَّى شَفِيَ
الْأَمِيرُ مِنْ مَرَضِهِ .

واعتذر الأمير « شمس الدولة » لأبي علي عما لحقه من الأذى . ونجح الأمير في استرضاء قادة الجيش ، فوافقوا على إعادة « أبي علي » لرئاسة الوزراء في همدان ، كي يفرغ الأمير لغزو إقليم « كارم » بجيشه .

وعاد « أبو علي » إلى قصره ، وإلى لقاء العلماء ، وإلى إملاء مُصنّفاتِه ، وإلى سهرات الليالي مع الأصحاب ، والغناء ، والموسيقى ، بينما كان الأمير « شمس الدولة » يُقاتل في حروبه ، ويعود للإشراف في طعامه وشرابه ، فيعوده المرض ويشتد عليه ، ويخشى قادة جيشه على حياته ، فيعودون به مُسرّعين إلى « همدان » أملين أن يُسعفَه « أبو علي » بالعلاج ، لكن الأمير شمس الدولة ، يلفظ أنفاسه في الطريق ، عند الجبل الذي تقع « همدان » على سفحه ، قبل أن يدخلوا به إلى المدينة .

رسالة سرّية

ويتولّى العرش الأمير « تاج الدولة » بعد أبيه . ولم يكن هذا الأمير قوى العزم ، ففتح أذنيه وعقله لحساد « أبي علي » وخصومه ، فيعزله من رئاسة الوزراء ويقطع عنه كلّ روايته من الإمارة .

ويزعم قادة الجيش للأمير الجديد ، أن « أبا علي » ينتقده في مجالسه بقصره ، ويخشى « أبو علي » من سجنه مرة أخرى ، وقتله ، فيغادر قصره ليلاً ، ويختفي عند صديقه « أبي غالب العطار » . ويخفي « أبو غالب » أمره عن الناس ، حتى ظنوا أن « أبا علي » قد تمكن من الفرار من همدان . ولم يكن أحد يعلم بمكانه سوى قلة من الأصدقاء ، كانوا يترددون عليه في ظلام الليل ، وبينهم كان « أبو عبّدة » الصديق . وكان « أبو علي » يملئ على صاحبه بقية فصول كتابيه الموسوعيين : « القانون » و « الشفاء » .

وكان « أبو علي » يخشى أن يكشف أحد مخبّاه ، ويوقن أن عليه أن يرحل عن « همدان » ، وأن يكون في حماية أمير آخر ، من أمراء الدولة البويهية ، فبعث سراً برسالة إلى الأمير « علاء الدولة كاكويه » ، أمير « أصفهان » يطلب فيه القدوم إليه ، وتوفير الحماية له .

وعلم الأمير « تاج الدولة » بأمر الرسالة ، من عيونه في « أصفهان » ، فأدرك أن « أبا علي » ما يزال في « همدان » ، وأفلحت عيونه في اكتشاف مخبئه ، فذاهم الجند قصر « أبي غالب » وقبضوا على « أبي علي » ، وأمر « تاج الدولة » فإلقى به سجيناً في قلعة « مزدجان » .

حرب بين أميرين

في السَّجْنِ ، في القَلْعَةِ ، وطَوَالَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ، شَغَلَ «أَبُو عَلِيٍّ» نَفْسَهُ بِتَأْلِيفِ كِتَابِ «الْهُدَايَاتِ» ، وَتَدْوِينَ رِسَالَةٍ عَنْ مَرَضِ الْقَوْلَنْجِ ، ذَكَرَ فِيهَا أَسْبَابَ هَذَا الْمَرَضِ وَأَعْرَاضَهُ ، وَطُرُقَ الْوَقَايَةِ وَالْعِلَاجِ مِنْهُ . وَكَانَ «أَبُو عَلِيٍّ» يَأْسًا مِنْ نَجَاتِهِ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ ، وَلَمْ يَكْتُمْ مَشَاعِرَهُ الْيَأْسَةَ ، فَرَاخَ يَصُبُّهَا فِي شِعْرِ حَزِينٍ ، مِنْهُ قَوْلُهُ :

دُخُولِي بِالْيَقِينِ كَمَا تَرَاهُ
وَكُلُّ الشَّكِّ فِي أَمْرِ الْخُرُوجِ

وَنَقَلَ «أَبُو عُبَيْدَةَ» شِعْرَ «أَبِي عَلِيٍّ» لِلْأَمِيرِ «عَلَاءِ الدِّينِ» ، فَثَارَ أَمِيرُ «أَصْفَهَانَ» وَقَادَ جَيْشًا هَزَمَ بِهِ جَيْشَ «تَاجِ الدَّوْلَةِ» ، خَارِجَ «هَمْدَانَ» ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَّكَّنْ مِنْ دُخُولِهَا ، فَعَادَ إِلَى «أَصْفَهَانَ» .

وَاضْطُرَّ «تَاجُ الدَّوْلَةِ» إِلَى إِخْرَاجِ «أَبِي عَلِيٍّ» مِنْ سِجْنِهِ ، فَعَادَ لِلْإِقَامَةِ فِي دَارِ صَدِيقِهِ «أَبِي غَالِبٍ» ، وَرَاحَ يَتَحَيَّنُ الْفُرْصَ لِلْهَرَبِ مِنْ «هَمْدَانَ» . وَدَبَّرَ لَهُ أَصْحَابُهُ أَمْرَ الْفِرَارِ ، فَتَنَكَّرَ فِي زِيِّ الصُّوفِيَةِ ، وَانْسَلَّ مِنْ «هَمْدَانَ» مَعَ أَخِيهِ ، فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ . وَكَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمَرِ خَمْسًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً .

عالم الفلك

قَبْلَ أَنْ يَصِلَ «أَبُو عَلِيٍّ» إِلَى «أَصْفَهَانَ» ، اسْتَقْبَلَهُ فِي الطَّرِيقِ خَوَاصُّ الْأَمِيرِ «عَلَاءِ الدَّوْلَةِ» ، وَرَحَّبَ بِهِ الْأَمِيرُ بِنَفْسِهِ عِنْدَ أَبْوَابِ «أَصْفَهَانَ» . وَنَزَلَ «أَبُو عَلِيٍّ» ضَيْفًا فِي دَارِ «عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَابِي» ، بِحَيِّ «كُونَكِيدٍ» .

كَانَتْ «أَصْفَهَانَ» مَدِينَةً عَامِرَةً ، تَقَعُ بَيْنَ «طَهْرَانَ» ، وَ«شِيرَازٍ» . وَاشْتَرَى «أَبُو عَلِيٍّ» لِنَفْسِهِ قَصْرًا يُقِيمُ بِهِ ، وَيَتَفَرَّغُ فِيهِ لِلتَّأْلِيفِ ، آمِلًا أَنْ يَظْلَّ بَعِيدًا عَنِ السِّيَاسَةِ وَمَكَايِدِ السَّاسَةِ وَالْعَسْكَرِيِّينَ . وَحَقَّقَ لَهُ الْأَمِيرُ «عَلَاءُ الدَّوْلَةِ» مَا يُرِيدُهُ ، عَلَى أَنْ يَجَالِسَهُ مَسَاءً كُلَّ يَوْمٍ خَمِيسٍ ، وَأَنْ يَقُومَ بِرُصْدِ عَمَلِيٍّ لِلْكَوَاكِبِ ، يُصْلِحُ بِهِ فَوْضَى التَّقَاوِيمِ .

وَانشَغَلَ «أَبُو عَلِيٍّ» بِالرَّصْدِ الْفَلَكَيِّ لِلْكَوَاكِبِ وَالنُّجُومِ مَعَ صَدِيقِهِ الْفَقِيهِ «أَبِي عُبَيْدَةَ» ، وَابْتَكَرَ لِلرَّصْدِ آلَاتٍ جَدِيدَةً ، وَوَضَعَ ثِمَارَ جَهْدِهِ الْفَلَكَيِّ فِي كِتَابِهِ «الْإِنْصَافُ فِي الْأَرْصَادِ» ، بَعْدَ عَمَلٍ شَاقٍّ اسْتَغْرَقَ مِنْهُ ثَمَانِي سَنَاتٍ ، أَضَافَ خِلَالَهَا جُزْءًا فِي الْمَنْطِقِ لِكِتَابِهِ «النَّجَاةُ» وَهُوَ الْكِتَابُ الَّذِي جَعَلَهُ مُلَخَّصًا لِكِتَابِهِ «الشِّفَاءُ» .

اذبحونى

وَعَادَ الْأَمِيرُ «عَلَاءُ الدَّوْلَةِ» يُلْحَ عَلِيَّ «أَبِي عَلِيٍّ»
لِيَكُونَ رَئِيسًا لَوْزَرَائِهِ ، قَائِلًا لَهُ :

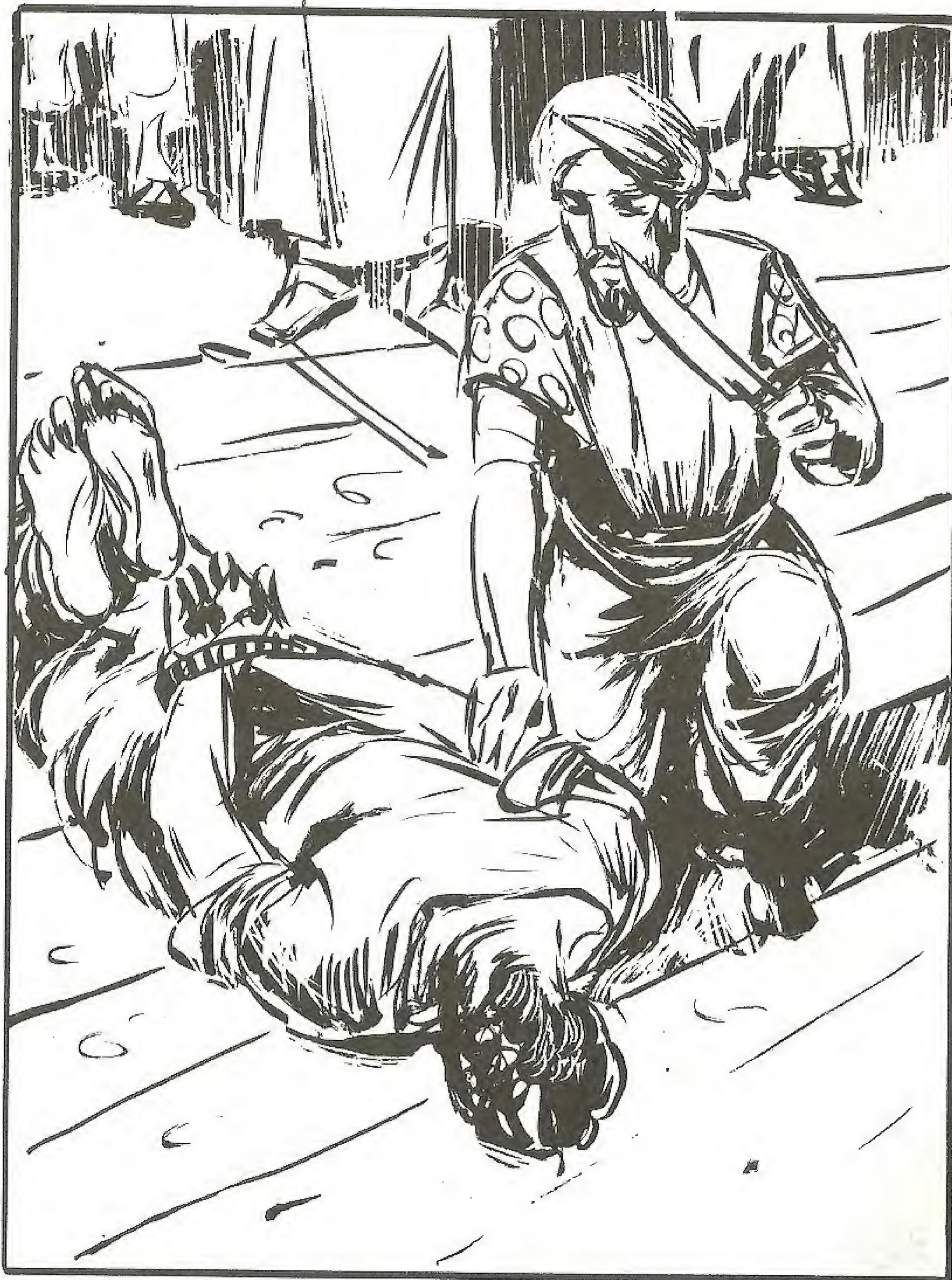
- اقبل يا أبا عليّ ، فَأَنَا بِحَاجَةٍ إِلَى عَقْلِكَ ، وَعَوْنِكَ .
وَلَنْ تَنْدَمَ عَلَيَّ قَبُولِكَ يَوْمًا ، فَأَنَا أَمِيرٌ ، لَا يَسْمَحُ لِنَفْسِهِ
بِالْوُقُوعِ فِي أَخْطَاءِ الْأُمَرَاءِ الْآخَرِينَ ، وَلَا أَوْلَى أُمُورِ
النَّاسِ لِقَادَةِ الْجَيْشِ .

وَقَبِلَ «أَبُو عَلِيٍّ» ، وَأَفْرَغَ نَهَارَاتِهِ لِمَهَامِ الْإِمَارَةِ ،
وَلِيَالِيهِ لِلِقَاءِ الْعُلَمَاءِ ، وَالتَّمَتُّعِ بِالسَّمَاعِ .

وَشَكََا لَهُ الْأَمِيرُ «عَلَاءُ الدَّوْلَةِ» يَوْمًا ، قَالَ :

- لِي قَرِيبٌ يَا أبا عَلِيٍّ ، أَصَابَهُ الْجُنُونُ ، فَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ
بَقَرَةٌ ، وَيَخُورُ مِثْلَ الْبَقَرَةِ ، وَيُطَالِبُ بِذَبْحِهِ ، وَحِينَ لَمْ يَجِدْ
أَحَدًا يَذْبَحُهُ ، امْتَنَعَ عَنِ الْأَكْلِ ، وَبِتُ أَنْتَظِرُ مَوْتَهُ ، لِيُرِيحَ
نَفْسَهُ مِنَ الْخَوَارِ ، وَيَسْتَرِيحَ بِرَاحَتِهِ مَنْ حَوْلَهُ .

وَاسْتَنْبَطَ «أَبُو عَلِيٍّ» حِيلَةً لِعِلَاجِ هَذَا الْمَرِيضِ ،
لَا عَهْدَ لِأَحَدٍ بِهَا ، فَكَتَبَ لَهُ رِسَالَةً قَالَ لَهُ فِيهَا : « افرحْ
الآن ، فَالْجَزَارُ سَوْفَ يَأْتِي قَرِيبًا لِدَبْحِكَ ، لَكِنَّهُ إِنْ وَجَدَكَ
هَزِيلًا ، لَا يُطْعِمُ لَحْمَكَ أَحَدًا ، فَلَنْ يَرْضَى بِذَبْحِكَ .



فَكُلْ كَثِيرًا ، واشْرَبْ كَثِيرًا ، حَتَّى تَسْمَنَ ، وَتَمْتَلِئَ
بِاللَّحْمِ ، كَيْ يَرْضَى الْجَزَارُ بِذَبْحِكَ .

وَفَرِحَ الشَّابُّ بِمَا قَرَأَهُ ، وَصَاحَ فِيمَنْ حَوْلَهُ :

- اطْعُمُونِي . اسْقُونِي . افرحوا معي . الجزار
سَيَذْبَحُونِي . سَتَأْكُلُونَ جَمِيعًا مِنْ لَحْمِي ، أَطْبَاقًا شَهِيَّةً مِنْ
الْيَخْنَى .

وَمَرَّ شَهْرٌ بكَامِلِهِ ، وَدَخَلَ « أَبُو عَلِيٍّ » عَلَى الشَّابِّ ،
شَاهِرًا فِي يَدِهِ سِكِّينًا وَحِينَ رَأَاهُ الشَّابُّ خَارَ خُورَ الْبَقَرَةِ ،
وَرَدَّدَ خُورَاهُ عَالِيًا ، وَأَلْقَى الْخَدْمُ بِالشَّابِّ عَلَى الْأَرْضِ ،
وَقَيَّدُوا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ . وَأَخَذَ « أَبُو عَلِيٍّ » يَجْسُ لَحْمَ جِسْمِهِ
كُلَّهُ ، ثُمَّ وَقَفَ غَاضِبًا ، وَقَالَ :

- إِنَّهُ مَا يَزَالُ هَزِيلًا ، وَلَا يَصْلُحُ لِلذَّبْحِ الْآنَ . سَمَّنُوهُ
قَبْلَ ذَبْحِهِ .

وَوَجِمَ الشَّابُّ الْمَرِيضُ بِنَفْسِهِ ، وَصَاحَ بِمَنْ حَوْلَهُ :

- اطْعُمُونِي . اسْقُونِي .

وَمَضَى شَهْرٌ ، وَكَانَ الشَّابُّ الْمَرِيضُ قَدْ سَمِنَ ، وَازْدَادَ
صِحَّةً وَعَافِيَةً ، وَزَالَ عَنْ نَفْسِهِ وَهُمْ أَنَّهُ بَقَرَةٌ . وَصَارَ

يَخْجَلُ حِينَ يَقُولُ لَهُ الْأَمِيرُ « عِلَاءُ الدَّوْلَةِ » ضَاحِكًا أَمَامَ
« أَبِي عَلِيٍّ » :

- أَلَا تَزَالُ تُرِيدُ الذَّبْحَ يَا بُنَى ؟!

الخروج الأخير

أَقَامَ « أَبُو عَلِيٍّ » فِي « أَصْفَهَانَ » ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ
خَمْسًا وَخَمْسِينَ سَنَةً . وَأُصِيبَ « أَبُو عَلِيٍّ » بِمَا كَانَ يُعَالِجُ
مِنْهُ مَرَضَاهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ ، بِدَأْ يُعَانِي مِنَ آلامِ قَرْحَةِ الْمَعِدَةِ ،
وَالْآلَمِ الْقَوْلُجِ ، بِسَبَبِ إِفْرَاطِهِ فِي الطَّعَامِ ، وَالشَّرَابِ ،
وَالسَّهْرِ ، وَالْجَهْدِ الْفِكْرِيِّ ، وَالْعَمَلِ الْمُتَوَاصِلِ ، وَقِلَّةِ
النَّوْمِ .

وَأَخَذَ « أَبُو عَلِيٍّ » يُعَالِجُ نَفْسَهُ ، بِحَقْنِ اسْتِخْلَصِهَا مِنْ
النَّبَاتَاتِ ، وَكُلَّمَا شَفِيَ ، عَادَ إِلَى عَادَاتِهِ الْمَفْرِطَةِ نَفْسِهَا ،
وَيَعُودُ مِنْ جَدِيدٍ لِعِلَاجِهِ لِنَفْسِهِ . وَبَدَأَ فِي جَهْدٍ آخَرَ
مُرْهِقٍ ، رَاحَ يَرْكَبُ فِيهِ فَرَسًا ، وَيَصْحَبُ الْأَمِيرَ
« عِلَاءُ الدَّوْلَةِ » فِي خُرُوجِهِ لِرِحَالَاتِ الصَّيْدِ ، أَوِ لِلْحَرْبِ ،
فَيَزِيدُ عَلَيْهِ الْمَرَضَ وَيَشْتَدُّ ، حَتَّى يَقْدِفَ الدَّمُ مِنْ فَمِهِ ،
وَيَعْجَزَ عَنِ السَّيْرِ ، عِنْدَئِذٍ أَهْمَلَ « أَبُو عَلِيٍّ » عِلَاجَ نَفْسِهِ ،
وَقَالَ لِأَخِيهِ « الْحَارِثُ » وَلِصَاحِبِهِ « أَبِي عُبَيْدَةَ » :

- إِنَّ الْمَدْبِرَ الَّذِي فِي بَدَنِي ، عَجَزَ عَنْ تَدْبِيرِ بَدَنِي ،
فَلَا تَنْفَعُنِي الْمَعَالِجَةُ .

وتحامل على نفسه ، وخرج مع الأمير « علاء الدولة »
الذي أحبه ، ليكون بالقرب منه ، أثناء حربه للأمير
« همدان » ، يحمله في محمل أربعة أعوان ، بأيديهم
الثمانية .

في « همدان » ، اشتد المرض على « أبي علي » ،
وأدرك أنها النهاية ، فاستعد للقاء ربه . اغتسل ، وتفرغ
للصلاة والتوبة والاستغفار ، وقراءة القرآن ، وتصدق بكل
ماله على الفقراء . ولبث ينتظر النهاية ، تتوالى على ذاكرته
أوائله في العلوم ، في كتبه : القانون ، والشفاء ،
والنجا ، عبر خمسين مجلداً .

أوائل ابن سينا

كان « أبو علي الحسين بن عبد الله بن علي بن سينا » ،
أول من حقن الإبر تحت الجلد ، وأول من استخدم
التخدير لإجراء الجراحات ، وأول من درس أمراض
المعدة والأمعاء دراسة متعمقة ، وأول من فطن إلى تأثير
أحوال النفس في الجهاز الهضمي ، وأول من فرق بين

أسباب شلل الوجه ، وأول من وصف الديدان المعوية ،
وأول من وصف الجهاز التنفسي ، والأمراض العصبية ،
وأول من وضع الثلج على الرأس . وكان الناس يقولون :
كان الطب مغدوماً فأوجده « أبوقراط » ، وميتاً فأحياه
« جالينوس » ، ومشتتاً فجمعه « الرازي » ، وناقصاً فأكمله
« ابن سينا » .

وكان « أبو علي » أول من اكتشف في قسم
الطبيعات ، من كتابه « الشفاء » ، القانون الأول للحركة
(في علم الديناميكا) قبل أن يتحدث « إسحق نيوتن » عن
قوانين الحركة بخمسائة عام . فالجسم ، عند ابن سينا ،
يبقى في حالة سكون ، أو في حالة حركة منتظمة ، في
خط مستقيم ، ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير حالته .

وفي الموسيقى ، كان « أبو علي » أول من تحدث في
كتابه : « الشفاء » ، و « النجا » عن تأليف الأنغام ، وعن
أزمنة الإيقاع ، وعن تعليل حدوث الأنغام الغليظة
المنخفضة والأنغام الرفيعة العالية . وكان أول من تحدث
عن السلم الملون ، المكون من أنصاف نغمات متتالية ،
وأول من تحدث عن الفواصل الموسيقية المتحدة .

اليوم الأخير

كَانَ الْيَوْمُ يَوْمَ جُمُعَةٍ ، الْجُمُعَةُ الْأَوَّلُ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ
سَنَةِ أَرْبَعِمِائَةٍ وَثَمَانٍ هَجْرِيَّةٍ ، أَلْفٍ وَسَبْعٍ وَثَلَاثِينَ مِيلَادِيَّةٍ ،
وَكَانَ « أَبُو عَلِيٍّ » يَنْتَظِرُ لِقَاءَ رَبِّهِ ، وَصُورُ الطَّبِيعَةِ الَّتِي
تَحَدَّثَتْ عَنْهَا فِي كُتُبِهِ تَتَوَالَى أَمَامَ عَيْنَيْهِ .

كَانَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ فِي الْأَفْقِ ، وَالنَّاسُ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى
صَلَاةِ الْمَغْرِبِ حِينَ لَفَظَ « أَبُو عَلِيٍّ » أَنْفَاسَهُ ، وَفَارَقَ
الدُّنْيَا .

وَنَعِيَ « أَبُو عَلِيٍّ » إِلَى الْأَمِيرِ « عَلَاءِ الدَّوْلَةِ » ، وَحَمَلَ
جَسَدَهُ الْجُنْدُ ، وَوَارَوْهُ الثَّرَى ، فِي سَفْحِ جَبَلٍ
« هَمْدَانٍ » ، الْمَدِينَةِ الَّتِي عَرَفَ فِيهَا مَجْدَ السِّيَاسَةِ ،
وَمَهَانَةَ السَّجْنِ ، وَقَالَ فِي أَهْلِهَا الشَّعْرُ ، وَصَعَّدَ بَرُوجَهُ ،
إِلَى ذُرَى الْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ .

وَفِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ ، وَعَلَى مَدَى ثَمَانِيَةِ قُرُونٍ ،
انْتَشَرَتْ نُصُوصُ كُتُبِ ابْنِ سِينَا بِالْعَرَبِيَّةِ ، فِي مَكْتَبَاتِ
الدُّنْيَا ، وَانْتَشَرَتْ مَعَهَا تَرْجُمَاتُهَا وَشُرُوحُهَا بِاللُّغَاتِ

اللاتينية ، والعبرية ، والألمانية ، والإنجليزية ،
والفرنسية ، والروسية .

وظَلَّ كِتَابُهُ « الْقَانُونُ » ، الَّذِي تَقَرَّبَ كَلِمَاتُهُ مِنْ مِليُونِ
كَلِمَةٍ ، هُوَ الْكِتَابُ الْعُمْدَةُ فِي دِرَاسَةِ الطَّبِّ بِالْجَامِعَاتِ
الْأُورَبِيَّةِ إِلَى الْقَرْنِ الْمِيلَادِيِّ السَّابِعِ عَشَرَ .

وَبَسَبَبِ عِبْقَرِيَّةِ « ابْنِ سِينَا » ، وَالْمَجْدِ الَّذِي حَظِيَ بِهِ
فِي حَيَاتِهِ ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ ، بَعْلَمِهِ ، وَبِحَيَاتِهِ السِّيَاسِيَّةِ
الْعَاصِفَةِ ، تَنَازَعَ جَنَسِيَّتُهُ : الْعَرَبُ ، وَالْفُرسُ ، وَالتُّرُكُ ،
وَالسُّوْفِيَّةُ ، وَاحْتَفَلُوا جَمِيعًا مَعَ بَدَايَةِ الْعَقْدِ الثَّامِنِ فِي
الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ ، بِالْعِيدِ الْأَلْفِيِّ لِمَوْلِدِهِ ، تَكْرِيمًا لِعَطَائِهِ ،
وَذِكْرًا .



وَفِي تُرْكِيَا ، وَإِلَى الْيَوْمِ ، مَا يَزَالُ الْأَتْرَاكُ يَنْسِجُونَ حَوْلَ
ابْنِ سِينَا ، وَخَوَارِقِهِ ، الْأَسَاطِيرَ الرَّمْزِيَّةَ .

يَحْكُونُ ، فِيمَا يَحْكُونُ ، أَنَّهُ كَانَ يَوْجَدُ مَلِكًا فِي حَلَبَ
(لَمْ يَذْهَبْ ابْنُ سِينَا إِلَى حَلَبَ قَطًّا) . وَكَانَتْ « حَلَبُ » قَدْ
صَارَتْ فَرِيسَةً لِلْفِئْرَانِ الَّتِي رَاحَتْ تُشِيعُ فِيهَا الْخَرَابُ ،
وَطَلَبَ الْمَلِكُ مِنْ ابْنِ سِينَا أَنْ يَجِدَ وَسِيلَةً لِإِبَادَةِ الْفِئْرَانِ ،
فَطَلَبَ ابْنُ سِينَا مِنَ الْمَلِكِ ، أَنْ يَقِفَ عِنْدَ بَابِ الْمَدِينَةِ ،

ولا يضحك مما سوف يراه . ورضى الملك ، وركب
فرسه ، وذهب إلى باب المدينة ، وانتظر عنده .
وأخذ ابن سينا يقرأ إحدى الرقي ، فأقبلت فأرة ،
فقتلها ، ووضعها في صندوق . ودعا أربعة فئران ، فأقبلت
تحمّل الصندوق بالفأرة القتيلة . وجاءت بقيّة الفئران .
وانظمت في أربعة صفوف ، وتبعّت الصندوق إلى خارج
المدينة .

وحين رأى الملك هذا المشهد ، لم يستطع أن يمنع
نفسه من الضحك ، فضحك عالياً ، وعندئذ فرّت الفئران
التي لم تُجاوز الباب عائدةً إلى المدينة : أما الفئران التي
كانت قد تجاوزت الباب فماتت في الحال .

وقال « ابن سينا » للملك :

- أيها الملك ، لو لم تضحك ، لم يبق في المدينة فأر
واحد ، ولذهب الهم عن جميع الناس .

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٧ / ٤٧٢٧

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر